رواية

بنات نعش

محمود حافظ

تنوير

رِوَايَة

بنِي بِنْتُ

مَحْمُود حَافِظ

دار تويا للنشر والتوزيع

عنوان الكتاب : بِنْتُ نبي
المؤلف : مَحْمُود حَافِظ
المراجعة اللغوية : عبد الهادي عباس
الإخراج الداخلي : رشا عبدالله
تصميم الغلاف : اسلام مجاهد
رقم الإيداع : 1538/ 2017
ردمك : 978-977-6549-22-7
الطبعة الأولى: يناير 2017

المدير العام : هاله البشبيشي
المدير التنفيذي : شريف الليثي

تويا
دار تويا للنشر والتوزيع
دار تويا للنشر والتوزيع

dartoya2015@gmail.com
دار تويا للنشر و التوزيع Dar.toya
@Dar_Toya
Dar.toya
(+2) 01150483084 - (+2) 01000706014
٣٥ شارع النصر – المعادي – القاهرة – مصر

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿بَلْ يُرِيدُ الإنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ[1]﴾

صَدَقَ اللّهُ العَظِيمُ

(١) القِيَامَة ٥ القرآنُ الكريمُ

" بلَا ثِيرَانٌ، تَظَلُّ الحَظِيرَةُ نَظِيفَةً، وَلَكِنَّ عَظِيمَ الفَائِدَةِ يَأْتِي مِنْ قُوَّةِ الثَّوْرِ[1]"

(١) الإِصْحَاحُ الرَّابِعُ عَشرَ ٤ سِفْرُ الأَمْثَالِ العَهْدُ القَدِيمُ

الجزء الأول

سجين

– ١ –

أراهُ هنـاك.. يعلـو قمـةَ الجبـلِ، يرفـعُ خطمَـه في شـموخٍ مُطلقًـا عـواءَه العتيـد... رهيبًـا، حزينًـا يمـلأ الكـون، الذئـب.. هـو في أثـري مثـل كلِّ يـومٍ، هـا أنـذا عنـد سـفح الجبـل.. ضعيـف.. أعـزَل، أرتجـفُ خوفًـا وبـردًا، أعـرفُ أنـه يقصـدُني.. يرمُقنـي مليًّـا مـن عليائِـه ثـم يهبـطُ الجبـلَ حثيثًـا في اتجاهي، أتجمَّـد للحظـةٍ، عينـاي تتحجـران صوبـه... وأخـيرًا أطلـق سـاقيَّ للريـح.

أبتعـدُ عنـه قـدْر مـا تسـمحُ قدمـاي النَّهَّابتـان لـلأرض، الضـوء ضنـينٌ عزيـزٌ رغـم اكتـمالِ القمـر، ودبيـب قوائمـه الأربعـة خلفـي... يختلـط مـع وجِيـبِ قلبـي، رئتـاي تحترقان... قدمـاي تشـجُبان سـوءَ المعاملـة، حاولـتُ الاسـتماتة في العـدْو رغـم معرفتـي أنـه لا فائـدة؛ فمنـذ متـى والمـرء ينجـو في الكوابيـس؟! وفي الكابـوس رقـم عشريـن!

فعـلًا... أنـا في كابـوسٍ، تكـرَّر عشريـن مـرةً حتـى صرتُ أُدرك وجـودي فيـه أثنـاء نومـي، عنـاصره ثابتـةٌ في كلِّ مـرةٍ.. الجبـل.. الجـرف.. والذئـب، يُطـاردني الذئـبُ لأهـوى مـن الجـرْف إلى البحـر المظلـم، لا يحـدثُ هـذا للنهايـة وأصحـو بينـما أهـوِي مـن حالـقٍ، ويـتردد صـوتٌ قريـبٌ يُناديـني، أيكـون صـوت أحدهـم يوقظنـي في الواقـع؟ ليتـه يفعـلُ هـذا الآن، فكابـوسُ اليـوم أشـدُّ هـولًا، وتحقـق مـرادي إذ سـمعتُ الصـوت.. يُنـادي باسـمي مـن جديـدٍ، انتهـى الأمـرُ إذن... لكنـي لم أصـحُ بعـد.

بـل لمحـتُ ظـلًّا طويـلًا أمامـي، ظـلًّا حيوانيًّـا بالتأكيـد، كتلـةً سـوداءَ في الضـوء الشـحيح، يمـضي عكـس الاتجـاه عـلى أربـع هـو الآخـر، يقصـدني أنـا بـكلِّ تأكيـد، لقـد تطـوَّر الكابـوس أخـيرًا... فليتهـدم الماخـورُ عـلى رؤوسِ مَـن فيـه إذن، تركـتُ نفـسي لهـما... أرحـتُ أنفـاسي لوهلـةٍ، فالمصـيرُ واحـدٌ وسـأصحو بـين أنيـاب أحدهـما، وصـل الـشيء الطويـلُ البديـنُ إليَّ أولًا.. مـدَّ ذراعيْـه المخلبيتـيْن و... حملنـي، نَعـم حملنـي وانحنـى ليضعنـي عـلى ظهـره ثـم أكمـلَ طريقـي القديـم بعيـدًا عـن الذئـبِ.

كان يبـدو كـدبٍّ عمـلاقٍ، أنقـذني مـن ذئبـي، يمـضي بي بأقـصى سُرعتـه، فتشـبثتُ بـه بـكلِّ عَزمـي، لـن أُفلتـه ولـن

أدعـه يُفلتنـي، هـو فعـلًا دبٌّ ومـا دام كذلـك، فهـو في صفِّـي، أرجـو هـذا في الحُلـم عـلى الأقـل، وسـمعتُ الصـوتَ يُنـادي مـن جديـدٍ... يعلـو باسـمي... يصـيرُ أجـشَّ قاسـيًا بالتدريـج و... وهنـا صحـوتُ، صحـوتُ عـلى أقـصى ألمٍ يُمكـن للمـرء النائـم أن يتوقعـه.

****

-٢-

تهـوِي الصَّفعـةُ فـوق خـدِّي بـكلِّ قوَّتهـا، لم يدَّخـر صاحبُهـا جهـدًا حـين قـرَّر إيقاظـي، أصحـو مُرتعبًـا مُرتعـدًا في سَريـري، أبحـثُ عـن مُهاجِمـي في ذعـرٍ، شـهقتُ كمـن يـرى جحيـم الخطـاة، حـين قابلنـي الوجـهُ الغاضـبُ القبيـحُ في ضـوء القنديـل، يرمقُنـي متوعـدًا بقسـوةٍ.. مـع خمسـةِ وجـوهٍ أخـرى تحتـلُّ المشـهد، كلهـا لمجانيـقَ بشريـةٍ شـغلت غرفتـي الصغـيرة، مدججـين بالسـلاحِ كمـن خـرج للحـرب، ألم ينتـه الكابـوس بعـدُ؟

- "ما... ما الأمر؟!"

- "تعالْ معنا!"

- "ولكن..."

لطمـةٌ أخـرى تطالنـي، كانـت إجابـة اعـتراضي، شـعرتُ فـورًا بطعـم الـدم الصـدئ عنـد طـرف شـفتي، بينـما تجذبنـي أياديهـم المنجليـة بـلا كلمـةٍ أخـرى لخـارج الغرفـة، يركلـون كلَّ مـا يعترضهـم، طاولتـي الخشـبية وكتبـي العديـدة عـلى الأرض، تتبعهـم قدمـي وحدهـا بـلا إرادةٍ منـي.

هـؤلاء القـومُ يبغـون طاعتـي وحسـب، أسـلحتهم والألـوان السـوداء عـلى أجسـادِهم تُوحـي بأنهـم مـن أمـن العاصمـة، مـع لهجتهـم الآمـرة القاطعـة، كل هـذا يعنـي أنهـم مأمـورون بنقـلي لمـكانٍ مـا، تركـتُ نفـسي لهـم، عرفـتُ أن الوقـت قـد حـان، إلى المنفـى حتـمًا أو العـذاب الفعـلي ووداعًـا لذئـبِ الأحـلام الطيِّـب المسَـالِم.

كنـتُ دائمًـا مُختلفًـا عـن الرَّكْـب، مُـترددًا بشـأن مسـلماتي ونظـراتي للأمـور، اختـلافي جلـب لي الحـيرة.. التخبـط.. والوبَـال، أنـا ضـدُّ عالمـي... وعالمـي سـيقتصُّ منـي يومًـا مـا، تلـك هـي جريمتـي كـما قـال لي صديقـي الوحيـد مـرارًا، لسـتُ معـه فأنـا ضـده... حتـى لـو لم أحاربْـه، كقطبـيْ مغناطيـس متشـابهيْن يتنافـران، حسـب مـا درسـتُه في الفيزيقـا، لكنـي لا أشـبه عالمـي... فكيـف أتنافـرُ معـه؟!

ذرَع القـومُ بي صحْـن داري، تطـوفُ بذهنـي الخواطـرُ... تسـعى لتفسـير الواقـع العسـيرِ، أمـي وأبي يرمقاننـي بعيونهـما

الناعسةِ المُجفلةِ في ركنٍ قصيٍّ، لا بد أنهما أدركا مثلي استحالةَ التعامل مع هؤلاء، والداي لم يهتمَّا يومًا بحالي الغريبِ وأطواري الأغرب، هذا مصيرُ كلِّ مَن كان مثلي على كلِّ حالٍ، ربما تكونُ النظرات الأخيرة بيننا، نظرتُ إليهما في جوعٍ.. جوعٍ إلى كلِّ نظرةٍ.

أخرجوني إلى الليلِ البهيمِ، البيوتُ ترمُقني بتشفٍّ على جانبيْ بيتِي، كلها من القشِّ أو الطوب اللبِن، تعجُّ بالآخرين المُسالمين السَّالمين، مُسالمين للمجتمع وهكذا صاروا سالمين، لا تنتظرهم مثلي عربةٌ مُدعمةٌ بالقضبان الحديدية من كلِّ جهةٍ، تجرُّها أربعة جيادٍ لا تختلفُ عن أصحابها في شيء، دفعوني في القفص مع اثنين منهم، وألهبوا ظهورَ الخيل بسياطٍ آلمني صوتُها، فانطلقت سنابكُها لا تلوي على شيءٍ، غطُّوا وجهي بقماشٍ فضفاضٍ كيلا أرى الطريقَ، ارتاح ساعدِي أخيرًا من أصابعهِم، على الأرجح... ليس لوقتٍ طويلٍ.

***

لطماتٌ وصفعاتٌ أخرى أيقظتني، إذ نمتُ مُتكورًا رغم حركة العربة السريعة المهتزة، حاولت تهدئتهم بكلماتٍ متوسلةٍ ليكفوا الأذى فزادوا في غيِّهم، استسلمتُ مع دموعٍ

طفتْ من عيني تحت القماش، أزاحوه وأخرجوني حيث استقرَّت العربةُ أخيرًا، خرجتُ منها ليفاجئني المشهدُ المهيبُ الذي لم أتوقعه في أجمح أحلامي.

قصرٌ شامخٌ أبيضُ الجدران، يتنافر بياضُه بشدةٍ مع عتمة الليل المقمر أعلاه، ذو أبراجٍ بالغةِ الطول وقبابٍ عديدةٍ، تنتشرُ المشاعلُ في الأبراج فيما انتصب فيها جنودٌ سودٌ آخرون شاكُّو السلاح من قِسِيٍّ ورماحٍ، تنتهي الأبراج والقباب قاطبةً بهلالٍ لامعٍ في ضوء النيران، ويسألني عقلٌ كالمعتاد في أحلك المواقف؟! ما فائدة القباب.. وما معنى الهلال؟! وأي قصرٍ مهيبٍ هذا؟!

يقتادُني الرجالُ من جديدٍ لباب القصر هذه المرة، عليه الجنودُ السودُ مُسلحين كأفضل ما يكون، كل شيء أسود.. كلُّ شيء مظلمٌ كاحلٌ، بالداخل كانت شبكة مُعقدة من الممرات الصخرية المضاءة بالقناديل، ننتقلُ من ممرٍّ لممرٍّ وألمح أجساد الجنود السوداء تلمعُ في كل اتجاه، هذا كابوسٌ.. حتمًا كابوس، كنتُ نائمًا في سريري وإذ بي هنا في هذا القصر... بل هذا السجن، نعم سجن.. الأبوابُ والنوافذُ ذات القضبان في كل مكانٍ، هذا هو معتقلي ومنفاي.

يجرُّونني جرًّا، يُعاملوني أسوأ من بغلٍ في حظيرةٍ، طفح الكيل وغُصصتُ بالهول حتى فاض وأغرقني، وجدتُ نفسي أصرخُ وأزومُ كوحشٍ حبيسٍ، اتركوني.. دعوني يا أوغاد.. يا أوباش، تبادلتِ القبضاتُ جسدي العاري من أيِّ حمايةٍ، تتبعها الركلاتُ والصفعاتُ وما شابه، في النهاية صرتُ كومةً ضعيفةً في أيديهم، يجرُّون جسدي الخانع المستسلم للأرض، ولم يمض الكثيرُ حتى فتحوا بابًا وألقوا بي هناك، صفقوا الباب خلفي بعنف.

- "أخطأتَ يا صديقي.. كدتَ تصل بالفعل، ما كان عليك أن تقاومهم للحظة"!

سمعتُه... صوتًا منهكًا بشدةٍ يُكلمني، رَفعتُ رأسي مُستطلعًا المكان، زنزانة كئيبة ضيقة، بها مشعلٌ واحدٌ، وعلى ضوئه... رأيتُ كليْهما يتطلعان إليَّ، أحدهما مُغطى الوجه بقماشٍ يُخفي ملامحَه كلها عدا فتحتين للعينين، كان الأقربَ إليّ ويبدو أنه من تكلَّم للتوِّ، أما الآخرُ فكان كهلًا يستندُ لجدار الزنزانة باسمًا بمرارةٍ، قال حين نظرتُ إليه:

- "يا مرحب... يا ميت ألف مرحب... شرَّفت الزنزانة"!

تلك اللغة الشعبية المتدنية التي تكلم بها الكهل، يتكلمها أسافلُ القوم معيشةً وتعليمًا، لا تجدهم سوى

في المناطـقِ العشـوائيةِ الغارقـةِ في الفقـرِ والبـؤسِ بعيـدًا عـن العاصمـة.

لفـت نظـري شيءٌ مـا في الأرضيـة، عليهـا نقشـةٌ لا أفهمهـا، مسـتطيلاتٌ تتجـه كلهـا لاتجـاهٍ واحـدٍ، كأنهـا تشـيرُ لـشيءٍ مـا، أيَّ سـجنٍ هـذا؟! لمـس ذو القنـاع حـيرتي ووهنـي، تقـدَّم إليَّ وأسـندني للجـدار، جسـده يحمـلُ آثـارًا للتعذيـب لا تختلـفُ في شيءٍ عـن زميلـه الكهـل، قـال مواسـيًا:

ـ "لا تخفْ.. نجوتَ لوهلةٍ منهم... هلَّا نتعرَّف؟"

نظـرتُ إليـه بضعـفٍ... مـا زلـت غـير مسـتوعبٍ لـكلِّ مـا أنـا فيـه، ربَـت عـلى كتفـي الموجـوع وقـال هـازًا رأسـه:

ـ "محمد عيسى... دين"

دين؟... ما قصده؟ لكن الآخر عاجلني بقوله:

ـ "وأنا... غاندي مانديلا... سياسة"

سياسـة؟... فهمـت قصدهـما بعـد برهـةٍ، رددتُ أخـيرًا بصـوتٍ مُتحـشرجٍ جـرَّاء الـصراخ:

ـ "إيساف... إيساف برصيصة، أنا لا أعرف لماذا أنا هنا"

ارتفعت ضحكاتُ الكهل مجلجلةً في المكان:

- "إيساف... وبرصيصة؟!.. إيه الورع ده كله! تصدّق؟!.. من اسمك ده ممكن أخمِّن تهمتك، أنا سياسة وهو دين.. تبقى إنت إيه؟ أكيد سيكو سيكو طبعًا! عشان نكمِّل مع بعض الثالوث المحرم! عمومًا.. وعشان بسّ تبقى في الصورة، إنت دلوقت في أفظع سجن ممكن تتخيله"..

- "أفظع.. أفظع سجن؟!... لماذا؟"

يقف ذو القناع ناظرًا نحوي، يقول في حسمٍ:

- "الإجابة عندك يا إيساف... من أجل تهمتك بالتأكيد، وكما قال غاندي.. أنت الآن... هنا معنا، في أسوأ سجن على الإطلاق.. أو كما يُسمونه عادة... (المسجد)".

***

-٣-

لسببٍ ما وجدتُ نفسِي أسأل:

- "لماذا... لماذا يُسمُّون هذا السجن بالمسجد؟"

صمت محمد قليلًا، نظرتْ لي عيناه الظاهرتان من قناعه، أدار لي ظهره وقال بصوته المتعب:

- "لأنهم يُجبروننا على السجود في اتجاهٍ واحدٍ... كما ترى على الأرض، بالمناسبة... أنا لا أكشفُ وجهي، لأنك لن تتحملَ رؤيته، صوتي المبحوح هذا... من أثر الصراخ الدائم، لا أقصدُ إخافتك.. أنا فقط أُحذرك".

فهمتُ ما عناه، التعذيب... التشويه... الـ.. الجحيم، أنا في الجحيم بعدما كنتُ مطمئنًا في بيتي أحلم بالكوابيس وأقاسي مرارة واقعي وحسب، لأهنأ بوجهي.. قبل أن

يأخـذوه منـي كـما فعلـوا مـع محمـد، وبكيـتُ.. دفنـتُ وجهـي بـين كفـيّ وأطلقـتُ لدموعـي العِنـان، هنـا وجـدتُ مـن يدفعنـي بشـدةٍ.. رفعـتُ رأسي ناظـرًا إليـه لألقـى الصفعة تنهـالُ عـلى خـدِّي، كان هـذا غانـدي.. مُغتاظًـا حانقًـا يهتـفُ بلغتـه الغجريـة:

- "يـا جبـان... أنـت جيـت هنـا عشـان قضيـة... اسـتحمل زيِّ الرجالـة"!

صرخـتُ مـن فـوري باعـدًا إيـاه بيـدي.. كفـاني صفعًـا وضربًـا اليـوم

- "أنا هنا بلا سبب... أخبرتك بهذا".

- "مفيـش حـدّ هنـا مـن غيـر سـبب... أنـت ليـك قضيـة وكلهـا كام سـاعة ويحققـوا معـاك، يمكـن تتعـذب ويشـوّهوك زيّ محمـد، ويمكـن تتحبـس هنـا للأبـد زيّ حالاتـي.. أنـا هنـا مـن ٣٠ سـنة، وإنـت مـش مسـتحمل قلـم علـى وشـك".

ونظرتُ له مذهولًا، ثلاثون عامًا في هذا السجن، لماذا؟!

- "لمـاذا حبسـوك هنـا ثلاثيـن سـنةً؟!.. ولمـاذا شـوَّهوك يـا محمد وعذَّبـوك؟!"

صمتٌ دام للحظات، بعدها تكلم محمد:

- "برأيك.. لماذا حبسوا وعذَّبوا الملايين غيرنا في تاريخ هذا العالم الحزين؟! اختلاف وجهات النظر يا صديقي.. أنا أظنُّ شيئًا وهم يظنون غيره، وتتصادم الإرادات.. إرادتهم أكبر، حبسوني ظنًّا أن فكري جريمة".

- "وهل الفكر جريمة؟!"

- "حين يتخطى حاجز الفكر، حين يصير دمًا وحركةً وتهديداتٍ... وفي الأغلب سيصيرُ، بيني وبينك.. لو كنتُ أنا الأقوى، لفعلتُ هذا بهم!"

أومأتُ له بدهشةٍ... تفعل مثلهم؟! أجاب باسمًا:

- "لا تستغرب، حين يهزمني أخي الصغير في التشاتورانجا[1] وأعجز عن ردِّ الهزيمة... ماذا تحسبني أفعل؟ أُوسعه ضربًا! هكذا الدنيا.. وهكذا البشر، والفكر... أمضى سلاح".

- "لكني احتفظت بفكري لنفسي... كنتُ فقط.. أتجنَّب الآخرين، أبتعدُ عن السياسة والدين وكل شيء، أخبروني أنتم عن الدين.. أخبرني أنت عن السياسة".

---

(١) التشاتورنجا : الجد الأصلي للعبة الشطرنج.

- "السياسة نجاسة!"

ردَّ غاندي ساخرًا، ثم أردف:

- "السياسة بقت مجرد وسيلة لإخضاع الناس للسلطة، تنويمهم... تليينهم... تعتيم نظرهم، يعني حاجة أبيحة مش أكتر، أنا من الناس اللي حاولت ترجَّع السياسة لمعناها، ساس يسوس... شيء هدفه سعادة الناس، عشت مع أقل الناس في المستوى.. عرفت أفكارهم وتكلمت بلغتهم، كانت النتيجة أني جيت المكان الجميل ده، و فهِّموني فيه إن السياسة برضه منها السايس... السايس اللي بيتعامل مع الخيول، بمعنى إن الناس خيول هايجة... والسايس بيروّضها لحسابه، وأنا مش عاوز أقتنع وأديني هنا لغاية ما يقنعوني! قول لنا بقى يا عم محمد... الدين يبقى إيه؟!"

ضحك محمد بصوتٍ خفيضٍ، وقال:

- "الدين ؟... الدين تدخين! سجعٌ آخر من أجلك يا إيساف، الدين هو نوعك المفضل من التبغ، كل منا يُدخن كما يُحب أو كما ينصحه كاهنه، أين الدين الصحيح؟ بحثتُ عنه حتى أجده وأظنني فعلتُ، حاولتُ إرشاد الناس... نصحَهم، مساعدتهم واختصار

السكة من أجلهم، لكنهم لم يسمحوا لي، فكري ضد فكرهم، لهذا أنا هنا ولهذا صرتُ أُخفي وجهي عن الآخرين، بعدما فعلوا بي ما فعلوا، إيساف.. أنت مثلنا.. حتمًا مثلنا".

تبًّا.. تبًّا وسحقًا لي وللمجتمع، تبًّا للصديق والحبيبة ولكلِّ ما كان في عالمي وقادني إلى هنا، وعدتُ إلى بكائي، أذرفُ الدموع في صمتٍ، اقترب مني محمد ورَبتَ على كتفي:

- "اهدأ.. الإله قادر على إنقاذك".
- "لا... لن يحدث".
- "لا تقل هذا"!
- "كيف يُنقذني الإله وأنا العاصي المرتاب بشأن أوامره ونواهيه؟!"
- "انتظر هنا... ماذا تقصد بكلامك؟"
- "لو كان لي جريمة، فهي أنني لستُ جديرًا بمعرفتي بالإله.. لستُ خليقًا بمكاني في عاصمة البلاد".

أمسك محمد بمنكبي، وقال في حزمٍ:

- "إيساف... أنا هنا من أجل دين الإله، احكْ لي يا صديقي، احكْ لي ولغاندي، سنستمعُ إليك ونفيدك، عسى أن ننقذك قبل التحقيق فتنجو من مصير أسوأ ينتظرك، فضفض... قُل كلَّ ما تريد.. ربما تتذكر شيئًا ينفعك، ربما تعودُ لصوابك وتُدرك خطيئتك، تتوبُ عنها فيتوبُ عليك الإله ويُغيثك".

نكَّستُ رأسي في يأسٍ، قلتُ شاعرًا بقلة حيلتي:

- "حياتي ليست شيئًا، محض عُقد بلهاء وأفكار غريبة وأحلام تتكرَّر كل ليلة".

هنا سمعتُ غاندي يهتف:

- "أحلام؟... بتقول أحلام؟! محمد ليه في تفسير الأحلام... محمد بيفسَّر أحلامي وأحلام المساجين والحرَّاس كمان بكل دقة، احكيله... صدّقني محدّش زيه هيوصَّلك للحقيقة".

نظرت لهما، ربما تكون الفرصة الأخيرة لي لأحكي لشخص ما..أحكي ما يعتمل بداخلي منذ زمن بعيد.

***

سأحكي.. سأحكي لكم، سأحكي عن إيساف برصيصة، الطالب المتخبط، التائه، الحائر بين كل شيء وأي شيء، منذ نعومة أظفاري، منذ عرفتُ كيف أفرِّق بين الألوان، احترتُ كثيرًا... أيَّ لونٍ أجمل...أيَّ لونٍ أختار... لا أدري، الأزرق خلَّاب.. الأحمر بديع.. الأصفر جميل، لا أعرف أي شيء يُعجبني أكثر، صدِّقوني إنه لشيءٌ مؤلمٌ أكثر مما تظنون وفي نفس الوقت غريب موحش، مثل سكين متعرِّجِ النَّصل قبيحِ الشكل يشقُّ لحمك، دعوني أنا أكلمكم عن الدين والسياسة، لن تجدوا عندي شيئًا يُقال! هذا العالم يعجُّ بالأفكار، النظرياتِ والآراء، في السياسة والدين وكل شيءٍ آخر، أين الحقيقة.. أيَّ طرفٍ هو الصحيح؟

وُلدت في العاهرة، مدينة الألف عاهرةٍ، عاصمة البلاد المباركة، يحميها دبُّ الإله.. شعارُها الذي يتوسط أعلامَها المرفرفة أبدًا، عرفتُ فيها كل شيء مبكرًا، رأيتُ النساء أمامي في كلِّ مكانٍ، في الشوارع ودور العبادة، استشعرت وقدة الجسد بداخلي منذ حداثتي، لم أفهم... وجدتُني حائرًا أكثر من كوني راضيًا أو مستاءً، كنتُ كذلك وما زلت، بخلاف كل الناس السعيدة المنطلقة بسليقتها.

هذه كانت البداية... بداية اختلافي عن الرَّكب، هل ينبغي أن نكونَ هكذا كما خلقنا الإله دون ساتر؟ بالطبع..

لكـن لمـاذا فعلـت بي الأجسـادُ العاريـةُ مـا فعلـت؟ كنـتُ أراها في كلِّ مـكانٍ وكل وقـتٍ، أليسـت هـذه هـي الفطـرة؟ طبعًـا هـي الفطـرة والسـليقة السـليمة، ولأننـا الآن عرايـا كـما ولدتنا أمهاتنـا... إلا مـن قناعـك يـا محمـد...

يبدو كلامي هذا غريبًا.. أليس كذلك؟!!!!

***

النِّسَـاءُ بالـذاتِ.. عَرايـا في الشـوارعِ والمسـارحِ بـلا قـماشٍ أو جلـدٍ يسـترُهم ، كل شيء مكشـوفٌ وواضـحٌ، يُثـير مـا يُثـير ويُحـرِّكُ مـا يُحـرِّكُ، هكـذا وجـدتُ حيـاتي ومدينتـي العاهـرة.. أيـن كان الديـنُ مـن هـذا كلـه؟ كانـت المفاجـأةُ أننـي وجـدتُ الديـنَ عندنـا هـو مـن يأمرُنـا بذلـك! وليـت الأمـرَ اقتـصر عـلى الأجسـادِ العاريـةِ المُغريـةِ فقـط!

***

– ٤ –

يقول كاهنُ العَاهِرَة الأعظم في كلِّ مرةٍ:

- "خلق الإلهُ الإنسانَ عظامًا ولحمًا وجلدًا، كما خلق الطيور بريشها، والأنعام بوَبرها وشَعرها، والأشجار بلحائها، فهل أضاف شيئًا آخر إلى أجساد مخلوقاته؟! لم يفعل.. ولذا فنحن مُحرَّمٌ علينا أن نُغطي خلق الإله بأيِّ شكلٍ، علينا العيش بأمر الإله وحكمته".
- "ومن أجل الزينة فقط، يُسمح لنا بدهن أجسادنا بألوانٍ مختلفةٍ، هكذا نكتسبُ المشهد الجميل اللائق ولا نُداري خلق الإله".

***

يقولون إن طفلًا واحدًا مثلي يُولد كلَّ مائة عامٍ، طفلٌ ينفرُ من الفطرة والأخلاق ويمقتهما، الفطرةُ في العُري

والتجرد مما يُغطي الجسد، هؤلاء الذين يتغطُّون ويُوارون خُلق إلههم هم المتنطعون المتبخترون، هكذا تعلمتُ واعتدت، فما لي لا أُريح عقلي النابض بكلِّ شكٍّ وارتيابٍ؟ وُلدتُ هكذا ورأيتهم عرايا حولي وأِلفت مشهدهم.. لا شك أن هذا هو الحق.. فأين الخطأ؟ دعوني أبدأ معكم منذ البداية... منذ وعيتُ على الدنيا وعرفتُها شيئًا فشيئًا.

كما تعرفون.. اهتمَّت العاهرةُ بالدِّين أكثر من أيِّ مكانٍ آخر، أكثر حتى من (إبيقوريا) و(مزدكيا) و(فرويديا) و(بومبي)، ما زلت أذكر اللوحات الدينية المعلقة في كلِّ مكان، التماثيل والمنحوتات بكل أشكالها، كلها عاريةٌ مُوغلةٌ في الفطرة، عرفتها قبل أن أنطقَ أول كلمةٍ، لم يدَّخر أبي وأمي جهدهما في تربيتي وتوعيتي، كانوا في غاية التقوى، ساهم كل هذا في نشأتي ليجعلني أكثر شكًّا وارتيابًا! ما زلت أذكر اليوم الأول الذي ذهبتُ فيه للتعبد معهم، كنتُ طفلًا فلم يُسمح لي سوى بالنظر والسمع، النظرِ إلى المتعبدين في الكرخانات والمواخير، وسماع أصوات المنتشين والمنتشيات.

***

ألا يقول الكاهن بنفسه...

- "أمرنا الإله أن نتعبد له بما يُفرحنا ويُمتعنا ويُريحنا، إنها حكمته الجليلة العظيمة لسعادة خلقه، عبادتنا كلها لذةٌ ومتعةٌ وتسليةٌ، عبادتنا هي أحلى ما في هذه الدنيا، نشتركُ فيها رجالًا ونساءً وصولًا للغاية العظيمة واللذة الحريفة، هذا هو طقسنا المقدس، تداخل بالروح والجسد بين العابدين".
- "ولتعظيم شأن هذه العبادة، على المرأة أن تُغطي شعرَها وحسب، ولا تكشفه سوى أثناء العبادة، فلتذكر العابدات التقيات دومًا هذا الفرض اللازم".
- "وعلى الرجال كذلك أن يحلقوا ذقونهم وشَعر أجسادهم بالكامل، حتى يصيرَ الطقسُ أكثر سلاسةً، هذا فرضٌ آخر لا يجب أن ينساه العابد التقي".

***

كانت الكرخانة بجانب بيتنا تمامًا، فكان الذهابُ إليها طقسًا يوميًّا لوالديَّ، أما الماخور الكبير فكنا نزوره يومَيْ الجمعة والأحد حيث يُقام التجمُّع المُقدس بين كلِّ المتعبدين، نظرتُ كثيرًا حتى اتَّسعت عيناي، كلَّت أذناي جرَّاء هتاف العابدين ورفيقاتهم، في الكرخانة حيث

ينفـردُ كل متعبـدٍ ومتعبـدةٍ في غرفـةٍ واحـدةٍ، يتطلـع إليهـم الأطفـال مثـلي في نهـمٍ، نريـد أن نفعـل مثلهـم.. حتـمًا نريـد، لكـن الديـن هـو الديـن، لـن يُسـمحَ لنـا بالاشـتراك في الطقـس المقـدَّس سـوى بعـد النضـجِ الـكافي حـين نقدر عـلى إنتـاج الماء الأبيـض الطاهـر، عندهـا نـشربُ الخمـر المقـدَّس ليُعيننَـا عـلى الانخـراط في العبـادة، أمـا قبـل ذلـك فمـن يُحـاول فعـل هـذا فـمأواه جحيـم الخطـاة وبئـس المصـير، كنـا جميعًـا نسـتعر في وقفتنـا نتأمـل العبـادة، يفصلـون بـين الأطفـال الذكـور ومثيلاتهـم الإنـاث تجنبًـا لأي تجـاوزٍ.

لم أفهـم وقتهـا شـيئًا!.. لكنـي أدركـتُ الحقيقـة فيـما بعـد، كل الأجسـاد العاريـة الملطخـة بالألـوان هـي محـضُ تشـويقٍ وجـذبٍ للعابديـن والعابـدات! حتـى يُقبلـوا عـلى الطقـس المُقـدَّس بـكلِّ حـبٍّ ولهفـةٍ! يمنعـون الأطفـال عـن فعلـه لـكي تكـون المـرةُ الأولى لهـم أمتـع وأعظـم مـا يكـون، تخيَّلـوا تشـويقًا لسـنواتٍ طويـلاااااتٍ، هكـذا يكـونُ التشـويق... هكـذا تكـون العبـادة!

***

ويُنهي الكاهن خطبته موصيًا:

- "والآن فلنبدأ التعبد معًا يا أبنائي، ولو ترك العابدُ منكم رفيقته دون اكتفاءٍ، أو فعلت هي ذلك، فليحتسب المتروك أجره منكم عند الإله، هكذا عبادة الأتقياء أيها الأحباء"!

***

ـ٥ـ

بالنسبة لطفلٍ مثلي يُشاهد العبادة يوميًّا.. اعتدتُ الأمرَ في النهاية، لم تعد تضاريسُ الأجساد في الشارع تُؤذيني، وصار الطقسُ المقدَّسُ مُملًّا إلا لو حاول طرفاه التجديد الصعب في كلِّ مرةٍ، كان هناك شيءٌ آخر يجذبني كل الجذب وأنا طفلٌ، الفن.. الجمال.. الإبداع بكلِّ شكلٍ ولونٍ؛ إبداع الإله أو إبداع الإنسان، دخلتُ المدرسة طفلًا لا أفقه شيئًا، هناك تعلمتُ وأحببتُ الفن، الرسم والنحت والقراءة والكتابة، والتمثيلُ الذي لم أتقنه... لكنني أحببتُه وعشقته.

هناك عرفتُ أيضًا شيئًا بديعًا يُسمى (الصداقة)، حين قابلت (برو يهوه) للمرة الأولى، كان وسيمًا مشهورًا بين الزملاء رغم اسمه الثقيل على اللسان، أنيق هو.. يُحسن اختيار ألوان الدهانات ويُكثر زيارة (المراسم) حيث يرسم

أشكالًا وزخارف جذابةً على سائر جسده، يُجيد التمثيل بشدةٍ في مسرح المدرسة، تعرَّفته إذ جاورني في مقعد الصفِّ، نفر مني بداية لكنه هام بي فيما بعد، راقه عقلي الراجح وعشقي للفنون، في حصَّة الحساب والأشكالِ كنتُ الأول دائمًا بينما احتل هو الصدارة في حصة التمثيل، وكنتُ بخلافه منفردًا بنفسي في الغالب عن الآخرين... إلَّا عنه، حتى تعجَّب المدرِّسون والرِّفاق من هذه الصداقة غير المتكافئة، ما زال برو صديقي إلى اليوم.. إلى حدٍّ ما.

تعرَّفت أمورًا كثيرةً مع برو، ما زلت أذكرُ اليوم الذي سألني فيه بغموضٍ وكان يدهنُ جسده بالأزرق الخفيف:

- "إيساف.. أتعلمُ كيف جئنا لهذا العالم؟"

أجبته بتلقائيةٍ:

- "مِن بُطونِ أمهاتِنا!"

- "يا أحمق.. أعني كيف تكبر بطون النساء هكذا ويخلقنا فيها الإله؟"

- "حين يشاء الإله!"

- "لقد شاء لك الإله أن تكونَ أحمق الناس!"

كيف لي أن أدري ما قصده، النساء تلدُ لدينا في كلِّ وقتٍ حين تقدرُ على ذلك، لكن لحظة.. لاحظت شيئًا ما:

- "أتقصد حين يرضى عنها الإله ويجعلها تتعبد له؟"

- "أخيـرًا... يـا لعقلـك الـذي أتلفـه الإحصـاء، لكـن السـرَّ ليـس فـي العبـادة نفسـها، بـل مـا ينتـج خلالهـا".

- "تعني لذة العبادة التي يمنحها لنا الرب؟"

- "بعيـدًا عـن اللـذة يـا ذكـي... أنـا أقصـدُ الشـيء الملمـوس".

- "الماء؟.. الماء المقدس!"

هكـذا عرفـتُ كيـف نُولـد، ليـس محـض العيـش بـين رجـلٍ وامـرأةٍ في مـكانٍ واحـدٍ هـو مـا يُنتـج الإنسـان، كان أبي وأمـي لا يتعبـدان أبـدًا في البيـت، إذن فمـن هـو أبي الحقيقـي مـن كلِّ عناتيـل الكرخانـات! وعجبـت مـن حـالي... لا أعـرفُ لي أبًـا!

***

وفي المدرسـة عرفـتُ شـيئًا آخـر قـد يكـونُ أجمـل مـن الصداقـة، شـيئًا يُسـمونه الحـب، أحببـتُ زميلتـي (إيرمـا) كثيـرًا، ظـنَّ بـرو وغـيره أن جسـدها الناضـج قـد راقنـي لتكـون رفيقتـي في دور العبـادة فيـما بعـد، لكننـي في الحقيقـة لم أفكـر في هـذا أبـدًا..

- "أومَّال حبيتها ليه يا نجم؟!"

سأُجيبك يا غاندي... أحببتها لوجهها الجميل، لروحِها الوثَّابة المرحة، ربما لشعرِها الضافي المسترسل، لم أنظر لباقي جسدها أبدًا... جسدها العاري طبعًا كما تعرفون، بيد أن إيرما نفرت مني ومن الجميع، ظلت غارقةً في النصوص المقدسة، تقرأها في كل وقتٍ ولا تُصادق أيًّا منا.

قالوا إنها تسعى لتنفيذ وصية النبي (إبيقور)، هي جميلةٌ بالفعل وينقصها المحاولة فقط لتحوزَ لقب عاهرة الإله وليس مجرد إحدى محظيَّاته كما نُسمي الجميلات، لم أكن بالطبع من المحظيين الرجال؛ فلم أكن وسيمًا أو قويًّا مفتول العضلات، لهذا لن أحظى بلقب العنتيل، لكن وصية النبي الخاتم كانت واضحةً، من يفعل الطقس المقدسَ مع القبيح ثوابه أعلى، هكذا قد ألتقي مع إيرما يومًا ما في طقسٍ واحدٍ يجمعُنا.

- "وهل انتهت قصتك مع إيرما إلى هذا الحدِّ؟"

- "بالعكس يا محمد... لا أظنها بدأت بعدُ"

***

-٦-

- "إيرما... هل لي أن أكلمك؟!"

بالفعل.. قرَّرت أن أكلمها، سأخرج من عزلتي وأواجهها بمأربي، أنا أحبها، أطهر حبٍّ ممكنٍ و... أطهر حب؟!.. متأكد يا أنا؟ كنا في الصف عقب حصة الفيزيقا، أبغي الظهور في أفضل حالاتي، دهنتُ جسدي بلونٍ فِضي جذَّاب، فيما دهنتْ جسدَها بالأبيض كالعادة، ردَّتْ سؤالي بهدوء:

- "أنت تُكلمني بالفعل.. أخبرني ماذا تُريد بالضبط؟"

تلجلجتُ في كلماتي، لم أكنْ أُجيد الكلام مع الفتيان فما بالك بالفتيات، لاحظتْ هي تلعثُمي واهتزازي فصرَّحتْ مباشرةً:

- "و بعـد... ألا تكفيـك نظراتُـك طيلـة الليـل والنهـار.. أخبرنـي الآن مـاذا تبغـي وإلا فاذهـب".

- "أنا أحبك!"

سمعتُ شهقةً سريعةً ثم..

- "كلاش!"

يدُهـا قاسـيةٌ فعـلًا عـلى خـدِّي! التفـتَ نحوهـا كلُّ التلاميـذ.

- "كيف تجرؤ؟!"

أسرعتُ بالدفاع عن نفسي مُتحسسًا موضعَ صفعتِها:

- "لم أخطئ في شيءٍ... قلتُ إنني أحبك فقط!"

- "لم تُخطئ... لم تُخطئ؟!!!"

وتجمهـر الطلبـةُ حولنـا، كنـا في مركـز الدائـرة نتبـادل النظـراتِ ينظـر إلينـا الجميـعُ، عـلى صـوت إيرمـا أكـثر حتـى بلـغ الـصراخ:

- "يقـول إنـه لـم يُخطـئ، ذاك الفاجـرُ يقـول إنـه يُحبنـي قبـل سـن البلـوغ!!"

سرَت همهـماتٌ غاضبـةٌ مـن الجمـع حولنـا، يرشـقونني بنظراتهـم المغتاظـة:

- "وقح"

- "قذر"

- "مُنحلٌّ"

- "وضيع"

- "لماذا لا تطلب منها الخمر كذلك!"

- "أنا لم أقصد الطقس المقـ..."

لكنـي لم أكمـل جملتـي إذ عاجلتنـي اللكمـة الأولى وتبعهـا أخواتُهـا في أنحـاء وجهـي... تطـوَّع الـكلُّ لتغيـير المُنكـر بيديْـه.

- "يعني دي كانت أول علقة يا شقيق.. هع هع هع!"

أخرجنـي غانـدي مـن خواطـري... ابتسـمنا جميعًـا وذهب محمـد ليقـضي حاجتـه ثـم عاد:

- "أكمل... أكمل يا صديقي ما حدث مع إيرما"

لم يحـدث يـا محمـد، فهمتنـي بشـكلٍ خاطـئٍ وظنَّـت مرامـي جسـدَها، لكنـي... كنـتُ طفـلًا، لم أطمـح في أكـثر مـن ابتسـامةٍ منهـا وتبـادل الكلـمات اللطيفـة، نعـم كنـتُ طفـلًا.. حتـى حـين.

***

-٧-

فقد كَبِرْتُ.. وزاد استعارُ الجسدِ واستفحل، لم يزددْ مع المعتاد من المناظر العارية... بل العكس، تلك الفاجراتُ ممن تواريـن بالحُجب والقماش، نسميهن القماشيَّات، يتجاهلن أوامرَ الدين والإله في الشوارع والطرقات، كثيراتٌ هن في الواقع، وفي الخيال أكثر... خيالُ الفن والفنانين، قماشهن الشفيفُ الضاغط... يفعل بيَ الأفاعيل، حتى في وجود العاريات بالكامل؟! بالطبع.. وإلا ما استغلَّ الفنانون ذلك ليجذبونا! أخبرتكم أنني أعشقُ الفن، لكن الفن يغصُّ بهم بكل أنواعه، بدأت بالتمثيل، معي صديقي المحترف.

كما تعرفون.. المسارحُ المتنقلةُ هي وسيلةُ انتشار الفن الأولى، والعاهرة تعجُّ بها، تُقدم المسارح عروضًا لا تنتهي طيلة اليوم في برنامجٍ ثابتٍ، يُقام العرضُ بحيث يراه كلُّ

أهل المنزل من نافذةٍ مخصصةٍ له، نتعرَّف عبره الثقافات الأخرى، نتعلم منه الكثير، نرى الشخصية المشهورة يستضيفها المسرحُ ويُحادثها ممثلٌ مخصصٌ يُسمونه المحاور، والأهم من هذا، نرى الرواياتِ المؤلفةَ ممثلةً أمامنا، يُعد البنَّاءون والحرفيون كل شيء لتبدو الروايةُ حقيقيةً، صورٌ مرسومةٌ بدقةٍ في خلفية القِصة.. مؤثراتٌ صوتيةٌ بحناجر ممثلين صوتيين، يحتشدُ فنُّ التأليف والرسم والتمثيل والموسيقى المعزوفة في مزيجٍ رائعٍ على خشبة المسرح، يشرف على هذا كله الناقل الذي سمُّوه هكذا لأنه ينقلُ لنا رؤيته كاملةً عبر روايته الممسرحة.

كان المسرحُ جزءًا لا يتجزَّأ من يوم كل عائلة، ويُسمح لنا فيه بالنظر عبر المقراب لنقتربَ من الممثل البعيد، عشتُ فيه مع الممثلين والأهم... الممثلات، اقتربت منهم ورأيت تفاصيلهم الناضجة عبر مقرابي، ويزدادُ لهيبُ دواخلي يومًا بعد يومٍ، كانت العروضُ المخصصةُ للكبار هي التي تجذبُ انتباهي، ففيها أرى الأجساد خلف القماش أكثر.. أكثر إثارةً بالطبع، هاته الفاجرات الوضيعات.

لم يؤثر فيَّ شيءٌ كما فعل المسرح، بممثلاته وتضاريسهن، بعروض الكبار الخاطفة لعقلي الغضِّ، هكذا صارت تفاصيلُ الأجساد الناعمة حولي تجذبني أكثر وأكثر في

الشارع، لم أعد طفلًا أنتظرُ كلمة حبٍّ من حبيبتي، بل صار كل همِّي هو ذاك اللحم اللدن البضُّ، وأحمى برو صديقي من نار جذوتي، يحكي لي خفايا عمله مع الممثلات، دعاني يومًا لحضور عرضٍ مسرحيٍّ في مسرح العاهرة العظيم المُسمى (مسرح عُهر)، وفيه يحضرُ العرضَ آلافُ المشاهدين مع المِقراب، كان العرضُ بعنوان: (قذارة روح).

وفيه كانت البطلةُ تُمثلها فتاةٌ شديدةُ الإغراء بقماشٍ ثقيلٍ يُطلقون عليه اسم (ملابس)، يحكي العرضُ كيف عاشت تلك البطلةُ تُخالف الإله وتُغطي أنحاء جسدها، كيف دعا هذا الفتى الصغير- وقام برو بدوره- الذي لم يشب عن الطوق بعد أن يميل إليها ويضرب بالنصوص المقدسة عرض الحائط، حتى كاد أن يفعل معها الطقس المُقدس، لكنها في النهاية نهرته وخلعت (ملابسها) وعادت لتُمارس العبادة الحقَّة في الكرخانات حتى صارَ لها كرخانة مُخصصة لها يقصدها العابدون من أقاصي البلدان، ونالت لقب العاهرة عن جدارةٍ واستحقاقٍ و.. تصفيقٍ.. تصفيقٍ حاد يصم الآذان من جهة المشاهدين، شخص واحد فقط لم تتحرك يداه قيد أنملة ليصفق.

- "وإيرما حضرت معاك العرض وبوستها ولا لأ يا موكوس؟"

سألني غاندي ساخرًا:

لم يحدث يا غاندي... فالواقع أن ما حدث معها لم يدُر ببالي قط.

- "طب ما تقول يا عم... مستنِّي إيه؟"

-٨-

سأخبرك أولًا يا غاندي عن حالي خلال السنين التالية في مرحلة الصبا، تُذكي فيها الفنونُ نار شهواتي الدفينة المحاصرة بسورٍ اسمه النصوص المُقدسة، لم أفكر أبدًا في تخطيها، كنتُ أخشى عاقبة الذنوب وما بعدها، فيومًا ما سيضعف جسدي ويرق عظمي لأودِّع الدنيا، أو يُصيبني المرض فجأةً ليزهق روحي، وحينها لن ألقى سوى العذاب وحده، حين يأتيني المُميتون ليأخذوني.

هكذا الموتُ في العاهرة.. يكون بأيدي المميتين، يأتون في أيِّ وقت، مهمتهم دفنُ الموتى، يرتدون ريشًا أسود ويضعون أقنعةً بمناقيرَ طويلةٍ كالغربان، هم من يُحدِّدون من يموت، كبار السن أول المُعرَّضين لهم، وحين يمرضُ أحدُهم يأتيه المُميتون ويُقررون أيبقى إلى أن يشفى أو يموت فورًا بأيديهم، وقد يختارون صغار السن ليموتوا،

يُسمونهم المحظوظين، لأنهم لن يشهدوا الأمراض المؤلمة أو ضعف الشيخوخة، أو موت أحبابهم قبلهم.

كان منظرُ المميتين دومًا أمام البيوت لرصد الموتى يُفزعني، أنا أخاف الموت حقًّا، وكثيرًا ما تساءلت: كيف يكون الموت على هوى بشرٍ يموتون أيضًا؟! كيف يرضى الإله بهذا في دينه؟ لكنني لم أصدح بهذا التساؤل سوى في عقلي!

أعرفُ أنني لستُ مُغامرًا بطبعي.. أخشى محاربة الأشخاص قبل النصوص، لذا لن أعلن أفكاري لمرة، ولن أتعجَّل في تنفيذ الطقس، انتظرت فرجًا قريبًا بنضجي، حتى أنفذ نصيحة نبينا الخاتم (عزازيل) بأن كل قطرة من الماء المقدس في التعبد يُقابلها سبعون ألف مجنحٍ يستغفرون لصاحب الماء.

***

– ٩ –

وظللتُ على شوقِي، حتى روى مائي فخذي يومًا بينما أحلمُ بنفسي بين أحضان إيرما الجميلة، صحوتُ لأجدَ القطَّ هناك يغفو بفرائه الوثير، أخبرتُ أمي صباح ذلك اليوم فكانت فرحتُها عظيمةً، احتضنتني بشدةٍ وبكت، أخبرتني أنني أخيرًا سأصيرُ عابدًا تقيًّا، وقد أسعى لأكون عنتيلًا باجتهادي دون الوسامة! من الآن فصاعدًا لن يخرجَ مائي إلا في العبادة، أخذتني في اعتزازٍ للماخور ليتم تعميدي مع بالغي الشرف أمثالي، هذه مرَّتنا الأولى وسيحضرها الجميع.

جميعُ الكهنةِ والعناتيلُ الأتقياءُ ينتظرون ليشهدوا أداءنا المُشرف بعد سنواتٍ من النظر والتمعن و- الأهم- الاشتياق، أجسادُنا ناعمةٌ حليقةٌ بالكامل تلمع كجلود العذارى كما علَّمنا النبي الخاتم، من الأعلى يتطلعُ إلينا

الأطفال جائعين للحظة اللقاء كما كنا نفعل سابقًا، وقفنا نحن الشباب صفًّا، وبعيدًا أمام كل شاب فتاته الناضجة القادرة على استقبال الماء، بلا دهاناتٍ على جسدها وإنما الجلد الطبيعي اللامع، يُغطي شَعرها الحجابُ الذي ستنزعه لأول مرةٍ، ويُداري وجهَها لثامٌ ليزيحه الفتى منا فيرى فتاته ويسعد بها.

قبل هذا يمرُّ الكاهنُ الأعظمُ ليمنحنا بركته ويُقدم لنا شربةَ الخمر الأولى، يُناول الشباب أوراقًا مصفرةً تحتوي النشيد الذي تاق كلٌّ منا لمعرفة ما به ولقوله أمام محظيته... لو كانت محظيةً، النشيدُ البديعُ ذو الكلمات العذبة التي تُقال للفتاة فتُدير رأسَها وتُلقي نفسَها في أحضانك فورًا ساعيةً للتقرب منك، الشوقُ يحتشدُ، يكادُ يفيضُ منا ليُغرق الماخور، عشتم هذه اللحظات حتمًا يا محمد ويا غاندي...

- "أومَّال؟!... هوَّ فيه أحلى من كده... قول قول وسمَّعني... أنت مؤدب كده ليه؟!"

صبرًا يا غاندي، فأنت لم ترَ الأدب بعد، ناولني الكاهن ورقتي، كنت مشغولًا عنه بالنظر لفتاتي من بعيدٍ، أمنِّي نفسي باللحظات القادمة، لكنه أعطانيها في تفهمٍ، لا شك أن كلَّ الشباب مثلي الآن، وكانوا وسيظلون مثلي، حين

انتهى الكاهنُ أمر بأن يقتربَ كل فتاةٍ وفتى.. وأن يبدأ الرجال بالإنشاد، بدأتُ أُنشد بكلِّ ما فيَّ من مشاعر.. نشيد الإرشاد، الذي يُرشد العابدين والعابدات..

وأنشدتُ..

يا لجمال قدميْك أيا عاهرةَ الإله!

كالمرمرِ والعقيقِ الأحمر.. غاب عقلي!

لكمْ أحسِدُ القَماشة على وجهك.

والهواء يُحيط بك.. أغبطه وأرجوه.

ما أجملك، وما أحلاك أيتها الحبيبة!

كفلقةِ رمَّانة خدك تحت قماشتك.

حبيبتي بيضاء سمراء أو قمحية.

يكفيني الملمسُ الواحدُ والمكمن ذاته.

لا أحلى من عناق أجزائك.

لا لذة تفوقُ ما أنتظره منك.

كلك جميلٌ أيَا عاهرتي.

ليس فيك عيبة.

لم يخلق شيء فيك.

كما خُلق لي وحدي.

لم أعرف حياةً ولن أعرفها.

قبل أن ألتقيك أيَا حياتي.

من أجلك انتظرتُ السنين.

حرمتُ نفسي.

أشحذ همَّتي وأقوِّي عزمي.

وأزيد لك شوقي وولهي.

سأجعلك سعيدةً كلَّ السَّعد.

فيك ذُبتُ وذاب كأسي.

فبات كأسي أنت ومأكلي.

وأنشـدتُ المزيـدَ والمزيـدَ، تغزَّلـت صراحـةً في عاهـرتي ومفاتنهـا بكلـماتٍ واضحـةٍ تصـفُ كلَّ جـزءٍ منهـا، وفعلـت بيَ الكلـماتُ مـا فعلـتْ، بلغـت الشـعلة أوجَهَـا، بلـغ الخمـرُ مرامَـه، أكادُ أفيـضُ قبـل اللقـاء... فلنلتـقِ.. فلنلتـقِ!، وانتهـى النشـيدُ، وظـل الشـباب كالوتـر المشـدود عـلى سـهمه، لمسـة واحـدة ويطـير بـلا عـودةٍ و.. و.. أشـار الكاهـن، وهـرع كلُّ بالـغٍ لبالغتـهِ، لينالـوا الـشرف واللـذة، أزاح كل البالغـين اللثـامَ

والحجـابَ وانخرطـوا فيـما انتظـروه، أنـا أيضًـا أزحـتُ لثامهَـا و... وشُـلت يـدي قبـل لسـاني، وطـار صـوابي قبـل كلـماتي..

- "كانت... كانت هي!"

- "بلى يا محمد... بعينها.. إيرما.. إيرما العاهرة"

***

-١٠-

طالـت اللحظـاتُ.. تجـري بينـي وبينهـا، يهتـزُّ فمـي وتتسـع عينـي، أُحـدِّق فيهـا وألاحـظ أثـر الزمـان عليهـا، هـي الآن أشـهى مـن ذي قبـل، لكنـي شـعرتُ بألـف قيـدٍ يُكبلنـي عنهـا، تنـداحُ أصـواتُ العابديـن والعابـدات مـن حـولي في انتشـاءٍ، إيرمـا مصدومـةٌ هـي الأخـرى، نظـرتْ لي طويـلًا دون تعبـيرٍ، لسـانُ حالهـا ينعـى حظهـا ويغتـاظ لحُسـن حظـي، تتنهـد في استسـلامٍ وتُشـير لنفسـها.. لكنـي لا أتحرك، اسـتثقلتْ خُمـودي وبـلادتي، أمسـكتْ بيـدي، فنزعتُهـا كأن يدهـا ذبَّـان العقـرب، ينفـد صبرهـا.. تقـول بإغـراءٍ مُقتضـبٍ:

- "هيَّا.. افعل مثلهم!"

- "....."

النظرةُ المبهوتةُ في عيني، نظرةُ بريء يجرُّونه للمقصلة.

- "تحرَّك يا هذا!"

- "لا"

تتوحشُ إيرما وتجذبُني نحوها.

- "افعل هذا الآن!"

- "لن أفعل"

تتشبثُ بي في غِلٍّ.. أدفعُها وأذهبُ، أتركُ الماخورَ كله، أتركُ الكاهنَ والعناتيل وكلَّ مَن جاء يُشاهد، يرمقونني كأنني معجزةٌ خارقةٌ للعادة، حتى العبَّاد تابعوني أثناء طقسهم، غطَّت الدهشةُ كل شيء، الوحيدة التي كادت تحرقني بنظراتها... تجزُّ على أسنانها بكل غيظِ الدنيا، هي إيرما نفسها، أفسدتُ طقسَها المُقدس الأول، لكني رأيتها ترمقني بتشفٍّ بين أحضان أول من وصل إليها من المتطوعين الأتقياء، لماذا فعلتُ هذا... كنتُ أحبها!... فلِمَ لَم أفعل؟!

لم يهتم القومُ بي، بالتأكيد قال لهم الكاهن في حكمةٍ:

- "مِن بين كل مائة طفل... يُولد أحدُهم خجولًا أو أبله أكثر من اللازم!"

***

أزمعتُ ألا أطأ دورَ العبادة بقدميَّ بعد هذا الموقف، سنواتٌ عديدةٌ مرَّت بالفعل، كنتُ أتحرَّق فيها شوقًا للتعبد، نيران الجسد تُلهبني، تنفخُ فيها المغرياتُ بكلِّ أصنافها، لماذا لم أفعل وأتعبد؟ ينبغي عليَّ فعل هذا قبل أن أنفجر ولكن... شيءٌ ما تهشَّم بداخلي منذ تلك المرة، أي شيء هذا وهل يُمكن إصلاحه؟

كيف السبيلُ إلى وقف الوغى وإطفاء اللهيب؟ الأجسادُ حولي في كل مكانٍ، عاريةً في الشارع.. مُغرية كل الإغراء.. خاليةً من أي سترٍ، إلا الرؤوس المُغطاة من أجل العبادة! الكرخانة تُناديني بأصوات العبَّاد المنتشية الراضية، والأسوأ من هذا كله، أجساد تغطت بقماشٍ خفيفٍ، يُثير الدواخل و لا يدعُ لها منفذًا، أراها في المسارح، وكثيرًا في الطرقات، تبًّا لهن وتبًّا لإيرما، ماذا أنا بفاعلٍ الآن؟

وشكوتُ لصديقي سوء أحوالي، ينظر إليَّ في ضجرٍ، يُعاتبني ساخرًا، ويشير للأجساد حولنا ويُخبرني أنه أفضل مني، ما من جسدٍ يروقه إلا ويتبع صاحبته حتى دور عبادتها و(يُحبها) هناك، استغلَّ الدين لمصلحتك يا أحمق، الدين تدخين... هذا يُثبت كلامَك نوعًا يا محمد.

لم أستمع لصديقي، لكني وجدتُ نفسي يومًا أمضي إلى الكرخانة بلا واعزٍ، كنتُ أعرفُ أنني لن أقربَ امرأةً، لكني

أريـدُ شـيئًا آخـر، ذهبـتُ في ركـنٍ قَـصِي، معـي مقـرابي، أُحـدِّق في العابديـن والعابـدات، أتأمـل كل حركـةٍ وخلجـةٍ.. أصيـخ السـمعَ لـكلِّ آهـةٍ، كأننـي محـرومٌ مـن كل هـذا! كان لا بـد عندهـا أن أفيـضَ بمـا داخـلي، أصـلُ لـذروتي جـرَّاء المشـاهدة.

- "تقصـد أنـك اسـتعضت عـن الطقـس المقـدَّس بالعـادة المقدسـة؟"
- "بالضبـط.. رغـم أنهـا مسـموحةٌ لنـا فـي السَّـفر فقـط، حيـن لا نسـتطيعُ التعبـد فـي الكرخانـات ولا نجـد النسـاء".
- "ودي تبقى عيشة يا جدع؟!"
- "صدقـتَ يـا غانـدي.. هـي تقليـدٌ أخـرق، لكنـه كان خيـاري الوحيـد"
- "وماذا يُجبرك على هذا يا أحمـ.. معذرة يا إيساف!"
- "لا بـأس يـا محمـد.. قـد يكـون محـض ادَّعـاء.. لكننـي.. أحببـتُ"
- "ها... أحببتَ؟!.. على طريقتك!"
- "بالفعل.. على طريقتي"

***

-١١-

تخطتني السنون يا صاحبي السجن، وأنا كما أنا... أقتصرُ عن العبادة بشبيهٍ سخيفٍ لها، لا يُسمن ولا يُغني من جوعٍ... ربما هي لحظةٌ واحدةٌ فقط وتذهب، بلغتُ مبلغ الشباب تأكلني الرغبة ولا يُطاوعني فؤادي، يصرخُ صديقي برو حانقًا:

- "الإله يُقدم لك الحل وأنت تهجره؟! تخيَّل لو كان الدين يشق الأمر علينا؟ تصوَّر أن العبادة تنأى بنا عن اللذة؟ أكنتَ سترضى وقتها؟.. أحمق أحمق أحمااااااق"

لكني بقيتُ على عهدي الصامت، لا نساء، لا فعل.. فقط مشاهدة وإطفاء قسري بليدٌ لنار الشهوة، كنتُ في حاجةٍ إلى شيء ما، شيء ينأى بي عن كلِّ هذا العبث، شيء

أزهـد بـه في الأجسـاد ومكوناتهـا، أي شيء هـذا؟ يُجيبنـي بـرو الـذي بلـغ صـبرُه مـداه:

- "فلتغنـكِ الأشـكالُ الهندسـيةُ القاسـيةُ الحـواف عـن الأجسـاد الملسـاء التـي لـن تعـرفَ حلاوتهـا مـا لـم تُجربهـا!"

عنـده حـق، لقـد تقدَّمـت في دراسـتي وأكملتهـا حتـى تخصصـتُ في الحِيـل النافعـة، الآن أطـوِّع معرفتـي في آلاتٍ ومعـداتٍ تُحقـق منفعـةً جليلـةً للإنسـان، قناديـل لا تنطفـئ في الريـح العاصفـة، آلاتٌ لرفـع المـاء نُسـمِّيها الشـادوف، ميزان لقيـاس مـا تحتويـه الأجسـاد مـن شـحمٍ ولحـمٍ، أبـوابٌ تفتـح بشـكلٍ آلي عـن طريـق الحبـال، والكثـير مـن الحِيـل المدهشـة.

كنـتُ أتصـبَّر كذلـك بالفـن الرائـع المهجـور مـن الجمهـور، قـراءة الروايـات في أوراقهـا قبـل تمثيلهـا، بـل وجـدتُ الكثـير مـن القصـص التـي لا يُمكـن لأي ناقـلٍ أن يُنفذها عـلى مسرحه، هنـاك الخيـال الجميـل الـذي لا يُهـزم، صعـدت في الروايـات عـبر النجـوم وقابلـت مخلوقـاتٍ عجيبـةً تحيـا هنـاك، هبطـتُ في أعـماق البحـار لألقـى السَّـمك يتكلـم ويحيـا كالإنسـان، تحدَّثـت مـع عظـماء الأرض الذيـن ذهبـوا وتركونـا، عرفـتُ مـاذا أحبُّـوا وكرهـوا وكيـف فكَّـروا.

رأيتُ ما لم يره برو ولن يراه، استقرَّ هو في التمثيل وبدأ يهجرني، لم أعد أراه كثيرًا، صار ينساني كما ينسى كيسٌ أدواته، منشغلًا عني بعروضه الملآنة بالقماش، يُحبها أكثر من كلِّ مشاهديه، يحسدونه كل الحسد إذ يُجالس هاته الفاتنات المغريات، لديه شلة أصحاب آخرين لا ينفصلُ عنهم، أين صداقتُنا التي خلبت لُبَّ الجميع؟... لا أدري، حاولتُ دومًا لمَّ شملنا.. بلا فائدةٍ.

وبعد قطيعةٍ دامت خمسة أشهر، بلا زيارةٍ واحدةٍ أو رسالةٍ بالحَمام الزاجل حتى، وجدتُ برو يزورُني في أيام امتحانات العام، لم يدعْ لي فرصة لومه أو تأنيبه، فهو يعرفُ جيدًا أنني لم أقصِّر معه، لكنه عاجلني بسؤالٍ لم أتوقعه على الإطلاق في هذه اللحظة:

- "ذكرني بقانون مساحة المربع يا إيساف!"

***

هل كنتُ محض مخدوع في برو؟ صديقي الأقرب يتجاهلني متذرعًا بأعماله ويتهرب مني بلا سبب؟ وحين يزورني يقصدُ مصلحته مباشرةً، أصابني ما فعله بصدمةٍ شرعيةٍ بالغةٍ، ولم أدرِ بماذا أشعر تجاهه، زاد من منغصات

حياتي واحدًا، غير إنني تناسيتُ واكتفيتُ بالعودة لكتابي حاسبًا أنه خير صديقٍ.

لكن فن الكتابة طالته ذاتُ اليد التي طالت غيره، إذ حفل بالقماشيات وتفنن في وصفهم، كان الكتابُ محض عرضٍ مسرحي مغرٍ، وجبةً دسمةً لكلِّ متعبدٍ ورعٍ، محض خمرٍ في صورة ورقٍ، يؤهله لعبادة أكثر اشتياقًا، لكنني لم أكن منهم، لهذا كنتُ أتخير قراءاتي بصعوبةٍ، إذ يخلو أي عملٍ جيدٍ من هذه النغمة، وعدتُ وحيدًا لا أجدُ مَن يُشابهني في فني المفضل، احتضنتُ الدراسةَ راضيًا قانعًا بحبي لها، يكفيني أن لديَّ شيئًا أحبه، وأتسلى مع قطِّي.. فروُه بلون المشمش الطازج، تكتظ غُرفتي بالكتب يمرحُ بينها القط في سعادةٍ.

لكن الدراسةَ الصعبةَ المرهقة، لم تجلب لي السلوى فقط، بل عرفتني بأجمل ما عرفتُ حتى الآن، بأجمل سلوى ونجوى، بأحلى ما يُمكن رؤيته ونسيان الدنيا كلها معه، كانت جميلةً.. جميلةً بحقٍّ.

- "قصدك حبيبتك الجديدة يا نمس؟"

أجمل حبيبة في تاريخ الحبيبات، لو أن نظراتي نارٌ لاحترقتْ حبيبتي من طول نظري، غير أني كنت لأحترق بدلًا عنها، نظرتُ ونظرتُ ونظرتُ حتى شكتْ عيني، لم

أفعـل شـيئًا سـوى النظـر لهـذه الأعجوبـة، كنـتُ أسـبِّح الإلـهَ الـذي سـوَّاها.

ـ "كلنا نقول هذا ونفعله... وما اسمها هذه المرة؟"

اسـمها وحـده حكايـة... كان يروقنـي... يُناسـبني، كأنمـا خُلـق لي.. فأنـا (إيسـاف)... وهـي (نائلـة)، وتمنيـتُ أن نصبـحَ معًـا جديريْـن باسـميْنا.

***

-١٢-

دعـوني أصـفُ لكـم أجمـل مـا رأتْ عينـي، كسـتنائية الشَّـعر تعقصـه في غديـرةٍ طويلـةٍ خلابـةٍ.. فهـي لا تُغطِّيـه للأسـف، بيضـاء البـشرة ناصعتهـا، في وجههـا ألـقٌ دائـمٌ، كأنـه نـور قنديـل لا ينطفـئ، عيناهـا بلـون قِطـي المشـمشي، فاتحتـان تبرقـان في الشـمس، ينتـشرُ النمـشُ الخفيـفُ أسـفل عينيهـا، لا يظهـر إلا عنـد الاقـتراب منهـا، جسـدها... مـاذا عـن جسـدها؟! لا أحسـبني أعرفـه.. لم أنظـر صوبـه كثيـرًا.. لم يكـن يعنينـي في شيءٍ.

لم تكـن محـض جميلـةٍ، بـل بارعـة جـدًّا في الحيـل النافعـة وخاصـة التـي نسـتخدم فيهـا الخيـوط، تسـبقُ زملاءهـا جميعًـا بمـن فيهـم أنـا، أحببتهـا كثـيرًا، لم أرَ غيرهـا حـولي، ملكـتْ كل عالمـي وملأتْ لي كـوني بأجمـل المشـاعر، خـبرة لم أجربهـا عـلى الإطـلاق مـن قبلهـا، باتـت منغصـاتُ الحيـاة بعيـدًا بعيـدًا،

هجـرت الكرخانـات والمواخـير... اعتزلـتُ النظـر في الشـارع، ودَّعـت المسـارح ومـا يجذبنـي إليهـا، كل شيء انتهـى مـن أجلهـا، مـن أجـل (نائلـة).

- "وهي حبتك أوي كده؟!"

لا يا غاندي.. فأنا لم أكلمها بعد...

- "كل ده ولسـه مكلمتهـاش يـا أخـي.. ده إنـت نيلـة.. ليـه طيب؟"

لأنها... لأنها قماشية يا عزيزي غاندي.

- "آهـاااااا... عشـان كـده مبصتـش علـى جسـمها.... وأنـا اللـي كنـت مسـتغرب!"

***

قماشـية كانـت.. بـل هـي مـن ذوات الملابـس، عرفـتُ أنهـا لا تقـربُ الكرخانـات كذلـك، فاجـرة!... لا تسـتحق شرف اسـمها، نائلـة التـي ولـدت ابنهـا مـن الإلـه ذاتـه حـين تجسَّـد ومارسـا الطقـس معًـا فكانـت أعظـم لـذة ونتـج عنهـا النبـي (إبيقـور)، أنـا أيضًـا لا أسـتحق شرف اسـمي، إيسـاف النبـي الـذي رفضـت زوجـة سـيده أن يُشـاركها في الطقـس فأغلـق لـه الإلـه الأبـواب حتـى أدركـت مكانتـه وعظمـة العبـادة،

مع أنه كان أقبح العباد، وفيما بعد صار إيساف ونائلة يتعبدان معًا، أيَّ إيمان.. أية عَظَمة؟! أين نحن من كل هذا؟.

حين رأيتُ نائلة ظننتُ أنها سبيلي للرضا عن نفسي فيما يخصُّ العبادة، عقدتي الأكبر، راقتني بوجهها الأخَّاذ، لكني صُدمت من جسدها المخفي تحت الملابس، فكرتُ أن أحاول معها من جديدٍ في الكرخانة، اتضح لي أنها مثلي... بتولٌ بعد، لماذا لا نتوب معًا إذن؟! نحن مثقلان بالخطايا والنفور من الحق، لنعد إليه معًا.. نسعى بكل قوتنا للصواب، كانت لديَّ خطتي نفسها، سأحدِّثها بكل صراحةٍ... أوحشتني سلامة نفسي حقًّا وسلامة جسدي، لا بد أنها ستتفهمني.. ستعودُ لرُشدها معي.

الكل يُحبها مثلي، لأنها جميلةٌ في أعينهم دون شك، لكنهم يمقتونها لاختلافها، أنا لم أفعل، أحببتها نفس حبي لإيرما وزدت عليه، لأنني الآن أعي حقيقة مشاعري أكثر... أريد العيش معها وأن نتشارك تربية أبناء لها، أريدها لي وحدي بخلاف العبادة، أحب أن أبدأ معها طقسي المقدس كحبيبة ولكن... كيف وكلانا نغصُّ بالخطيئة.. تتساقط منا ويراها الناسُ في كل وقتٍ؟

سـأكلمها غـدًا ويكـون مـا يكـون، بـدأت أشـعرُ بضيقهـا جـرَّاء نظـراتي، فأنـا لم أفعـل سـوى النظـر والتأمـل! بـل زدتُ فيهـما كأننـي أعـد بحثًـا عـن مخلوقـةٍ اسـمها (نائلـة هُبـل)

***

في اليـوم التـالي وعقـب انتهـاء المحـاضرة، انتظرتهـا حتـى خرجـت مـن حانـوت خـاص بـأدوات الدراسـة:

- "نائلة... كيف حالك؟"

تلتفت برزانةٍ.. ترمقني بشكٍّ:

- "بخير... ما الأمر؟.. هل- حضرتك- تعرفني؟"

- "بالطبـع.. أنـا إيسـاف.. زميلـك فـي دراسـة الحِيـل النافعـة.. ألـم تلحظينـي مـن قبـل؟"

تملصت مني بلباقةٍ:

- "لا للأسف... تشرَّفت بمعرفتك.. هل من شيء؟"

- "ثمـة اعتـرافٌ أريـد البـوْح بـه... لكـن.. أرجـو أن تفهمينـي.. أعـرفُ أنـك سـتفهميني"

- "اعتـراف؟!... لا أفهـم شـيئًا... لكـنْ لتُسـرع أرجـوك فلديَّ عمـلٌ كثير"

- "أنـا أراكِ منـذ مـدةٍ... منـذ بدأنـا الدراسـة معًـا... لـم أسـتطع أن أحـوِّل عينـي إلـى فتـاةٍ أخـرى غيـرك و.."

تصمـت للحظـةٍ.. تقـول كأنهـا تسـمع شـيئًا عابـرًا اعتـادت عليه :

- "ثم...؟"

- "أنا.. أنا أحبك... أنا أعشقك!"

***

ينفجـرُ غانـدي في الضحـك الماجـن حتـى يخـشى محمـد أن يسـمعه الحـراس، محمـد نفسـه كان يضحـك حتـى صـارت عينـاه قوسـيْن ضاحكـيْن بدورهـما، كنـتُ في غفلـةٍ عنهـما، أسـترجعُ وجـه نائلـة الـذي اقتربـت منـه يومهـا!

- "يخرب سنينك ياض.. بتكرر نفس الغلطة يا ناصح"

قالها غاندي بصعوبةٍ بين ضحكاته العصبية.

- "صراحـةً.. عنـده حـق يـا إيسـاف، لا يعـودن أحدكـم للعابـدة البـاردة مرتيـن!"

- "حديـث نبـوي جميـل يـا محمـد.. لكنكـم لـم تعرفـا بعـد بمـاذا أجابتنـي!"

توقف كلاهما عن الضحك، نظرا لبعضهما ثم لي:

- "نعم... قصدك أنها مرقعتكش بالقلم تاني"

- "لم تفعل!"

- "يا راجل... أومال قالتلك إيه؟"

- "قالت لي.. ولِم لا؟!"

***

-١٣-

ردَّتْ نائلة في كياسة:

- "ولِمَ لا.."

- ".....تعنين أنك موافقة؟"

- "موافقة؟!.. على ماذا؟!!"

- "على أن تحبيني كما أحبك!"

ضحكت بجزلٍ جميلٍ، وقالت:

- "احبني كما تشاء.. لكن لا تُجبرني على ذلك!.. ولا تُضايقني يومًا"

- "لا أجبرك؟.. ولكن..."

- "هل انتهيت.. هل أذهب؟!"

- "مهلًا.. هناك شيء آخر"

ببرودٍ ردَّت:

- "آسفة.. لا أصادق الفتيان"

- "لا أعني هذا.. ماذا عن الكرخانة و..."

هنا هتفتْ في انفعالٍ:

- "اخرس.. لا تُضفْ كلمةً أخرى!"

- "و لكن أنا.."

- "تبًّا لك ولحبك.. اذهب!"

***

لا أفهم شيئًا، لا تحبني.. لا تُصادقني، ولا تتعبد مثلي؟! ماذا يدورُ في رأسك يا نائلة يا بنت هُبل؟ ولماذا لا تبغين التُّقى كما أبغاه؟ أية ثورة انتابتك حين جئت بسيرة دار الإله الحق؟ نائلة.. أنا مثلك وأنتِ مثلي، نفرنا مما نشأنا عليه ولكن.. إلى متى؟ إلى متى نظل هكذا بعيديْن عن التقاةِ... بعيديْن عن المجتمع؟ صدِّقيني.. سئمتُ وتعبتُ ومرضتُ.

فعلًا مرضت، تغيبت عن الدروس، أهملتُ فيها، وانتكست، عدتُ بشدةٍ للكرخانات.. أشاهد.. أنفعل... أفيض في لحظةٍ وحسب، كنتُ أتصبر بكل هذا، يُنسيني

مـرارة ردِّ فعلهـا، كـدت أتـردَّى للطقـس المُقـدس، لكنـي أحجمـتُ في آخـر لحظـةٍ، حبهـا يتملكنـي.. يتمكـن منـي، هـل أتحامـق؟... أنـا لا أريـد سـواها، وأريـد أن نكـون معًـا والمجتمـع.. لـن أتعبـد مـع سـواك، لأننـي أحبـك.. لكـن لا تكـوني عكـس فطرتـك.. وأنـا مثلـك، لا تكـوني محتشـمةً مذنبـةً هكـذا بملابسـك، وأنـا ببعـدي عـن العبـادة وتشـبُّهي بالعابديـن.

ولاحظـتْ نائلـة مـا ألمَّ بي، لاحظـتْ وجومـي وشرودي، لا نظـر لـدرسٍ ولا سـماع لنـصٍّ، أحـدِّق في الفـراغ هائمًـا وحسـب، لم أعـد أُيمِّـم نظـري ناحيتهـا حتـى، وإذا لقيتهـا في مجـال بـصري مصادفـة أشـيح بوجهـي عنهـا في أقـل مـن لحظـةٍ، بقيـتُ عـلى هـذه الحـال.. أحـضر يومًـا وأغيـب أيامًـا، حتـى جـاء يـومٌ.. وجدتُهـا تقـتربُ منـي وتقـول:

ـ "أخيـرًا أتيـتَ؟.. أرغـبُ فـي التحـدث معـك... لـو سـمحت!"

***

جلسـنا في اسـتراحة الطلبـة، تنظـرُ نائلـة لأسـفل كأنهـا تتحـاشى رؤيتـي، أنـا أيضًـا تحاشـيتُ بصعوبـةٍ نظـرات

الاشمئزاز والضيق من العابرين إذ يرونني أُجالس فاجرةً خاطئةً ذات ملابس كنائلة.

- "لم أعرف أنك تعلقتَ بي لهذا الحدِّ بمحض نظراتٍ ولهاء يا إيساف، انتابك تغيُّر عظيم، لا تهمني في شيء صدِّقني.. فقط أريد أن أعرف.."

ثم رفعت عينيْها نحوي.. أردفت:

- "ماذا تريد مني؟... كيف تراني؟... أخبرني بكلِّ صراحةٍ يا إيساف... أرجوك!"

أصمتُ قليلًا... أحتفظُ بصدى اسمي الذي نطقته مرتين.. وأتأمل ملامحها الأسطورية عن قربٍ، النمش القليل البديع، ملحمة من الفن والإبداع الإلهي، لكن فلأقل كل ما بداخلي، فلأفعل طالما سنحت لي الفرصة:

- "أخبرتك أنني أحببتكِ.. ولكن.."

أصمتُ للحظةٍ.. أتجهز لما سأقول، أُفلت زمام الكلام:

- "لماذا تفعلين هذا؟! لِمَ تعارضين إلهك ودينك؟! تُخالفين المجتمع كله وتمضين وحدك مذمومةً مكروهةً،تتجنبيندورالعبادةوتنفرينمنالتقيَّات؟"

أتنهد وأتأملها بحزن، قلتُ لها أخيرًا:

- "ومـا هـذه الثيـاب الخليعـة التـي تغطيـكِ... اخلعيهـا، اخلعيهـا! وليكـن مظهـرك كمـا أمـرك إلهـك ودينـك!"

تتأملنـي سـاخرةً، لسـان حالهـا يشـتمني بألـف لغـةٍ، تـردُّ أخـيرًا باسـتهزاء:

- "أخلع ثيابي؟!.. ولِمَ لا تحلق أنت لحيتك أولًا!"

- "أوبـاااااااااااااا... أحرجتـك يـا برنـس... صحيـح إنـت دقنـك طويلـة كـده ليـه؟"

***

-١٤-

تحسستُ ذقني، ناميـة قليلًا،خـلاف أمـر النبـي عزازيـل! الحلـق فُـرِض مـن الإلـه بالطبـع، كنـتُ أتركهـا أنـا الآخـر.. لا أحلقهـا كـما ينبغـي.. أغلـب الرجـال في العاهـرة لا يحلقونهـا مثـلي و...

- "أنا أشفق عليك حقًّا"

قالتها في صدقٍ، ثم أردفت:

- "أنت تحبني.. أم تحب مجتمعك؟!"

- "أحب.. أحب الدين... وأحبك"

- "لـو كنـت تحـب الديـن.. لحلقت لحيتك وشَـعر جسـدك، ولقصـدت الكرخانـات.. لكنـك لم تفعـل... مثلي"

- "ماذا تقولين؟.. أنا لستُ مثلك ولا أتخذ الملابس!"

- "لأنك جبان.. لا تندهش هكذا، أنت بالفعل أجبن من رأيتُ في حياتي، لا بد أنك تحب ترك شَعرك هكذا لأنه يشعرك برجولتك واختلافك عن النساء، كرهت التعبد وهجرته، ربما تفكر في ارتداء الملابس مثلي عما قريب"
- "اخرسي.. أنت.. أنت فاجرة!"
- "ما الفُجر والعهر بالضبط يا صانع الحِيل؟ أين الحق... أين الدين؟! هل هو حقًّا ما وُلدنا عليه؟ صدِّقني.. ملابسي هكذا لا تُرضيني.. أريدها أثقل! لكني على درجةٍ من الجُبن أنا الأخرى، أخبرني أنت: من أمرنا بالسير عراةً؟"
- "الـ... الإله بالطبع"
- "وأنا إلهي أمرني ألا أفعل هذا... ولكلٍّ منا إلهه، لكل منا كاهنه"
- "نائلة.. أرجوك كُفي عن هذا.. كوني معي"
- "لست معك، ولا أودُّ أن أكون... أنت لا تُحبني، أنت تُحب صنعة الإله في وجهي، وتُحب تقاليد مجتمعك، دعني وشأني، لن أتغير وأصير تقية كما تريدني، لن أسيرَ عاريةً في الشارع ملطخةً جسدي

بدهـانٍ سـخيفٍ وأغطـي شَـعري وحسـب، أمـا أنـت فابـقَ علـى مـا أنـت عليـه.. مذبـذب.. مغبـون، المشـكلة فيـك أنـت... وحـدك، أنـا بـلا مشـاكل... اذهـب لحالـك!"

- "انتظري.. لا تذهبي و..."

***

وذهبـتْ، وذهبـتُ لحـالي كاسـفَ البـال أسـوأ مـن ذي قبـل، قاطعـتُ الدراسـة نهائيًـا، حلقـتُ شـعري وذقنـي بشـدة في البدايـة، ثـم تركتـه ينمـو بـلا اهتـمامٍ، حقًّا مـاذا أريـد؟ مَـن أنـا.. وأيـن الحـق؟ أي الألـوان أفضـل... الأزرق خـلاب.. الأحمـر بديـع.. الأصفـر... جميـل.

نائلـة... أيـن أنـتِ؟ هـل جئـتِ لتعذبينـي وحسـب؟ أحبك ولكـن... هـل أدع دينـي مـن أجلـك؟ أحـب إطالـة الشـعر.. كل الرجـال تُطيـل شـعرها في العاهـرة، لكـن ليـس كل النسـاء يكتسـين بالملابـس مثلـك، مـا معنـى هـذا؟ ألومـك لأنـك تُخالفـين الديـن.. أم تُخالفـين المجتمـع؟ ومَـن فينـا الصحيـح.. نائلـة، ذهبـت اليـوم فقـط لأراكِ.. لألتمـس شـذاك.. لأرى عينيـكِ، تنضحـان بأجمـل لـون.. أجمـل مـن الأحمـر والأصفـر والأزرق.. لـون المشـمش.

هـل أحببتـك فقـط لجمالـك؟ ولكـن.. لمـاذا يُحـب المـرء أصـلًا؟ لا أفهـم.. لا أعـي، هـا أنـذا أراكِ خلسـة.. أهـربُ حـين أشـعرُ بنظراتـك ترصـدني، أعـودُ.. جائعًـا إلى عينيـك.. لـون المشـمش هـذا، وحـين عـدتُ إلى منـزلي، وجدتهـم يقفـون هنـاك أمـام البـاب.. بأوشـحتهم السـوداء، بالريـش عـلى أكتافهـم والقنـاع ذي المنقـار عـلى وجوههـم، المُميتـون.

مَـن حـان وقتـه؟ لا.. أبي؟.. أمـي؟.. وهرعـتُ ناحيتهـم، أصيـح في توسـلٍ

ـ "مَن.. مَن تُريدون؟ هل تقصدون هذا البيت حقًّا؟"

تُحـدق بي عيونهـم الخاليـة مـن الحيـاة في بـرودٍ، اعتـادوا هـذا الأسـلوب مـن الأهـل حتـمًا:

ـ "هو البيت بعينه"

ـ "كيـف.. إن أبـي وأمـي بخيـر، ولـو مرضـوا فسـريعًا مـا سيشـفون.. أؤكـد لكـم"

ـ "ليس أبوك أو أمك يا فتى"

وسقط قلبي بين قدمي.. إذن.. إذن:

ـ "تقصدون أنني.. أنني الميت؟.. أنا من المحظوظين؟! "

ـ "وليس أنت أيضًا.. بل القط"

- "الـ.. القط؟!!"

وخرجوا بالقط بعد دقيقةٍ، مكوَّمًا في أيديهم بلا حركةٍ، قطي الذي يذكرني بها.. مات أيضًا؟! أتى اليوم الذي رأيتُ فيه المميتين عندي، قضيت ليلة سوداء، أبكي لموت القط.. ولموت حبي، ولخوفي من يومٍ أموتُ فيه فاجرًا مُخالفًا إلهي، ويموت أحبتي، تموت نائلة.. ويذوى جمالها بين البِلى والدود، كل شيء يموت.. كل شيء سيموت، سيأتي المميتون ويأخذونه بلا رجعةٍ.

***

وكان اليوم الأول الذي أحلم فيه، حلمت بقطي يمشي في صحراء قاحلة، صغير جدًّا... ضئيل جدًّا.. تائه جدًّا، كذرَّة رملٍ في الصحراء... بل هو كذلك بالفعل، لم أكن معه.. كنت أرى المشهد كأنه عرضٌ مسرحي مُجسم، بدا لي موقفه مُخيفًا مرعبًا.. ذاك البائس، ما مصيره.. وهو وحيد.. الأسوأ أنه وحيدٌ بلا صاحبٍ أو شريكٍ، مثلي.. حين تركني برو يهوه وذهب لحاله وشلته.

وظل القط يمشي، كان رغم كل شيء يلعب.. أليس قطًّا شقيًّا في كل حال؟ يُطارد ظلال النباتات الجافة في مرح، يجري حينًا ويمشي حينًا آخر، لا يدري أنه بلا طعامٍ أو

شرابٍ أو مـأوى، وعـما قريـبٍ ربمـا تتلقفـه الطيـور الجارحـة قبـل قضائـه جوعًـا وعطشًـا، وهنـا فقـط.. رأيـت ظـلًا يدخـل المشـهد، فـاردًا جناحيـه في عَنـان السـماء، طـير أسـود.. يدنـو مـن القـط، يهبـط إلى أسـفل.. يبغـاه وجبـة شـهية، صـدق حـدسي.. صقـر أو نـسر أو حتـى حـدأة، انتهـت حيـاة المَـرِح المغبـون.

القـط الغريـر، راح يعبـث مـع الظـل، يزيـد القـط سرعتـه فيفعـل الطـير مثلـه... يتبعـه... يقتنصـه بنظـره قبـل مخالبـه، يترصـده ولـن يضيعـه، ويقـترب الظـل.. ومعـه الطـير، الطـير الـذي.. الـذي لم يكـن جارحًـا، لم يكـن مخيفًـا بهـذا القـدر، لكنـه كان القـدر نفسـه للقـط، كان غرابًـا.. أتعيـش الغربـان في الصحـراء؟ القـط يُلاعـب الظـل غـير عابـئ.. والغـراب صـار أعـلاه.. أعـلاه بمـا لا يذكـر، فـاردًا قدميْـه بمخالبهـا السـود و... أصحـو صارخًـا في رعـبٍ.

قطـي المشـمشي.. مـات، حتـى في حلمـي.. أخـذه الغـراب، ولم يكـن هـذا نهايـة المطـاف، فقـد طـاردني الذئـب مـراتٍ لا تُحـصى، في الحلـم الآخـر الـذي سـأقصه عليـك الآن يـا محمـد، آمـلًا في تفسـيره، فلعلـك تكـون منقـذي مـن ضـلالي وحـيرتي.

***

-١٥-

انتهيتُ من قصِّ حلم الذئب، وأخيرًا الدبُّ الذي أنقذني الليلة قبل إيداعي هذا السجن المُسمى بالمسجد، وصمت محمد مفكرًا بينما جلجلت ضحكات غاندي الهازئة ثانية:

- "هاع هاع هاااااااع... ديب ودب وغراب وقط؟... متأكد إنك بتدرس الحيل النافعة ولا شغال حارس في جنينة الحيوانات؟"

ينهره محمد في حزمٍ:

- "صه يا غاندي... هذه كلها رموزٌ ومعانٍ أنت تجهلها"

- "طب كويس إني بجهلها.. أقولك حاجة، أنا حلمت بحمار إمبارح، فسَّر يا عم وسمعني! "

تجاهله محمد ووجَّه حديثه إليَّ بنفس الحزم:

- "إيساف.. أتحبُّ أن تُضيف شيئًا قبل التفسير؟ أي حدثٍ مهم أو معلومة قد تُحدث فرقًا معي"

أقولُ في تسليم:

- "لا.. لا أظن، حكيتُ لكم كل شيء، أنتم الآن تعرفون عني كما أعرف أنا عن نفسي، تلك مسرحيتي بكامل فصول العرض"
- "إذن.. فالحلمان واضحان تمام الوضوح، وسبب وجودك معنا هنا أيضًا"
- "حقًّا يا محمد؟ هل أستحق ما أنا فيه؟"
- "تستحقه.. وسأخبرك الآن لماذا"

***

راح محمد يُحدثني واعظًا..

"الأمر جلي كما الشمس المشرقة، أنت بالفعل تنكر فطرتك وسليقتك، منذ شببت وأنت تُحاربها داخلك قبل خارجك، اختار لك الإله أسمى مدائنه لكنك رفضت هديته بكل قسوةٍ، جنحت للسوء والفجور، مع أن العُهر يتدفق من بين يديك ومِن خلفك، ألا فسحقًا لهذا السلوك،

الصدقَ أقول لك: أنت عار على العاهرة، عار حتى على هذه الزنزانة في هذا المكان القذر، أنت الضلال ذاته يمشي ويُكلم الناس، لا بد أن تُمزق إربًا ويرموا أشلاءك للكلاب الضالة يا إيساف برصيصة، حملت أقدس الأسماء لكن العار يجللك ويُثقل كاهلك، ألا فالإله القاسي الغليظ قادك للسجن بدلًا من الموت، إنك حتى لا تبكي لكلماتي هذه! ما زلت تظن أن أفكارك السفيهة تستأهل الحلول في عقلك!"

"أنا أشفق عليك ولذا سأساعدك، سأخبرك بتأويل الرؤى، عسى أن يكتب لك الإله النجاة مع أنه قاسٍ غليظٌ لا يقبل حماقات العباد، أما عن القط والغراب، فالرؤية ساطعة كفلق الصبح وأنت قلتها بنفسك، الموت غراب أسود حطَّ على القط الجميل شبيه عينيْ حبيبتك في لونه، الموت سيأخذها يومًا ويأخذك، أليس المميتون يضعون أقنعة الغربان؟ وسيأتون لك في أيِّ وقت؟ وأنت يا أحمق البشر تضيع الوقت بعيدًا عنها وعن لذاذات الحياة، تهجر دار العبادة وتكف العابدة التقية الشفافة عنك، وهي تتشبث بك لمنحك نفسها لكنك تدفعها بعيدًا، الإله يُقدم لك الإنذار، الغراب سيهبط في أي لحظةٍ ليقودك للجحيم، الجحيم الذي سيسعد بالحمقى

مثلك، فكل عاصٍ هو في الأصل أحمق، لذا فاسعَ يا عبد الإله لخلاصك بين أحضان العابدات التقيات، حالقًا شَعر جسدك كله من أجل الرضا الأعظم من الإله الأعظم!"

"وأما الذئب والدب، فالحق ظاهر لكل عاقل بخلافك، الدب هو شعار العاهرة، الدب هو النجدة والنجاة من الإله، كيف بقيت في غيك بعد كل إنذارات الإله إليك؟ عشرين حلمًا وأنت لا ترتدع؟ الذئب الذي كاد يأكل النبي إيساف وأنقذه الإله بدبٍّ مزَّق الذئب تمزيقًا، الدب أنقذك وسينقذك حقًّا لو تبعته ورغبت في جواره، إيساف أيها العبد الآبق، أنت تشبه عالمك.. لكنك تُنكر هذا بشدةٍ، ولذا تتنافرُ معه كما تنصُّ قوانين الفيزيقا، الحل أن ترتمي في أحضانه لأن شبيه الشيء منجذبٌ إليه، الحل بين يديك وأمام ناظريك فهلا تمشي نحوه وتسلك الدرب الصحيح قبل فوات الأوان؟!"

***

- "الحل... أين الحل؟.. الـ.. الكرخانات، المواخير.. حلق الشَّعر؟"

يهدرُ صوتُ محمد في غيظٍ:

- "دعك من حلقِ الشَّعر يا أبله، اتركه كما هو"

- "لكن الحلق فرضٌ من الإله و.."

يُمسكني محمد من منكبيّ ويجذبني نحوه، عيناه تشتعلان في ثقبيْهما، صوته المنهك صار أشدَّ إرعابًا كوحشٍ جريحٍ:

- "الناس لا تحلق يا هذا، والنساء لا يرتدين الملابس.. هل فهمت؟ أنا كاهنك.. أنا أخبرك بالحق"

- "فهمت فهمت... إذن فعليَّ بالطقس المقدَّس، حتى لو كانت عابدةً غير نائلة"

يتركنى محمد ويقول فاردًا ذراعيْه:

- "تلزمك التوبة النصوح يا إيساف، وأن تبدأ بما تخشاه من أجل الإله"

- "تعني... تعني نائلة نفسها؟"

أشار لي بسبابته صارخًا:

- "أنت تحبها.. إذن سيكون الطقسُ أجمل وأمتع"

- "لكن.. لكنها"

- "لكنها فاجرةٌ وعاصيةٌ مثلك... وهنا بيت القصيد"

- "أرشدها للتوبة معي؟"

- "ولو بالقوة"

***

-١٦-

- "تعني أن أجبرها على الطقس؟"
- "هكذا تعتذرُ عن كل خطاياك السابقة"
- "هل الإله يرضى عني بهذا.. هل يريد مني حقًّا هذا؟"
- "الإله لا يريم إلا هذا"
- "إذن سأفعله... سأفعله وحقِّ الإله ما استطعت ذلك"

***

المشعل الوحيدُ في الزنزانة أشفر على الانتهاء، ماتت جذوته أو كادت، ساد الصمت بين ثلاثتنا، ارتفع غطيطُ غاندي الذي ملَّ محمدًا وأسلوبه الوعظي الصارخ، رحت أرمق الأرض المنقوشة باتجاه السجود، هل سأسجد قسرًا عما قريبٍ؟ هل سأموتُ وتلتهمني الكلابُ الضالة؟ أو ربما الغربان السود، قطي المشمشي.. نائلة... أبي وأمي.. كتبي

وفنوني وحيلي النافعة، وكل جميل بحق في عالمي.. أين أنا منكم الآن؟ لكن لا.. لن أعودَ إليكم إلا طائعًا مهتديًا، وإلا فالسجنُ هنا والسجود أهون من كل شيء.

نائلة.. أنتِ السبب في كل ما حدث لي، لو سمعتِ كلماتي.. لو تُبنا معًا، أنتِ حمقاء مثلي، حمقاء وغبية.. لا، بل أنتِ الأجمل والأصدق من كل شيء، لا.. بل سأفعل بك ما يفعله كل التقاة، سأفعله مهما قاومتِ أو رفضتِ، بل سأتركك لأنني أحبك، ولكن ولكن.. آاااه، طفت دموعي وغلبتني أخيرًا، بكيتُ كما لم أبكِ منذ رحل قِطي، بكيتُ بكل هموم وأثقال البشر، بكيتُ لعالمٍ قاسٍ وإله قاسٍ، لم يرحمني كلاهما، بينما حدث العكسُ مع نائلة، رحمها إلهها وعالمها عندما وثقت بهم، تبًّا لك يا نائلة.. وتبًّا لكل شيء.

وزاد نحيبي وأنيني، حتى أتاني محمد، وأسند رأسي لمكنبه:

- "نم يا صديقي، نم واحلم من جديدٍ.. وارغب في التوبة بقلبك"

- "محمد.. أهذا هو الدين الحق الذي سُجنت هنا من أجله؟"

- "ليس هذا فقط يا فتى، بل وأكثر"

- "لكنك لست ضد المجتمع مثلي"
- "أنت ضد الإله والمجتمع.. لذا أتيت هنا"
- "وماذا عنك؟"
- "دعك مني... ألم أخبرك أنني من أجل الدين؟"
- "ولكن..."
- "نم يا إيساف، عسى أن يهديك الإله ويردك إليه أخيرًا"

***

ونمتُ متعبًا، تستكينُ مفاصلي وضلوعي بعد كل أذى الليلة، غير أني لم ألبث أن صحوتُ مُجفلًا، فثمة يدٌ تهزُّني في إلحاحٍ، أفتح عيني بصعوبةٍ، ألفيت قناع محمد القماشي وصوته المبحوح يهمسُ عاليًا:

- "استيقظ يا إيساف.. أسرع"
- "ما.. ما الأمر؟"
- "فرصتك الوحيدة للنجاة.. قم الآن"

أقوم في لهفةٍ، يشير محمد لشخصٍ مفتول العضلات حاد النظرات يقف بجانبه، عرفته على الفور، أحد الحراس

بالطبع، اللون الأسود يغزو جسده، ومن خلفه رأيت باب الزنزانة مفتوحًا.. ما معنى هذا؟

- "إيساف.. لقد شرحت للحارس كل شيء، وقد تفهَّم موقفك وقبِل مساعدتك، نعم.. الآن سيأخذك للخارج لتصحيح كل أخطائك"

تنفرجُ أساريري وتتسع عيناي فرحةً.. لا أُصدق، يومئ محمد بصبرٍ:

- "فلتسرع الآن ولتذهبْ معه.. سيوصلك للمكان المناسب"

أعانقُ محمد دامعًا، ما زلتُ لا أصدق:

- "ولكن.. ماذا عنك وعن غاندي؟"

- "نحن لا أمل منا، لو هربنا فسيُعيدوننا حتمًا، حلُّ قضايانا ليس بالهرب، بخلافك أنت، تذكر فقط ما اتفقنا عليه"

- "سأتذكر.. لن أنسى أبدًا"

- "هيا بنا!"

يقولها الحارسُ بغلظةٍ، أدع محمدًا وغاندي النائم هناك، يقتادني الحارس عبر شبكة الممرات قابضًا على يدي

بحسمٍ حتى بلغنا باب المسجد، منه لاح الظلامُ المُقمر البديع، ظلام الحرية، يتجه الحارسُ نحو عربة الجياد نفسها، يشير إلى المكان بجانبِ الحوذي، ويقول:

- "اركب!"

فأطيع الأمرَ ويجلسُ الحارسُ بثقله إلى جانبي ممسكًا بالسرج، تنطلقُ الجياد نحو النجاة، انتهى الكابوسُ أخيرًا، وبكيتُ من جديدٍ متخيلًا حياتي القديمة و..

- "لم ينته الأمر بعدُ"

اسمعها رغم الهواء اللافح من حولي، أكمل الحارسُ كلامه:

- "ينقصك التوبة الكاملة.. الندم وحده لا يكفي"

لا أفهمه، ولم أشأ سؤاله، انتظرت حتى يأخذني لبيتي ولكن.. مرَّ الوقتُ سريعًا ووجدتُ نفسي أمام بيتٍ آخر، بيت كنت أعرفه جيدًا، من الطوب وليس القشّ، وفي طابقه الثاني، كانت نافذة مضاءة و.. وتوقفت العربة.

- "فلتتسلق هذه الشجرة حتى النافذة.. وهناك تعرف ما عليك فعله"

لم يكن سوى بيت نائلة.. بالفعل، فهمت كل شيء، نظرت للحارس سريعًا ثم تسلقت الشجرة بلا كلمةٍ،

تسلقتها كالمجنون، كالهارب من حكم الإعدام، بعد كل الهول الذي شهدته بسبب نائلة، هل أتردد للحظةٍ واحدةٍ؟ لا بد أن أحفز نفسي قسرًا لاشتهائها، أمنِّي جسدي وغرائزي بها.. ورأيتها حين وصلت للنافذة، كـ(روميو) الذي تسلق الشجرة ليمارسَ الطقس مع (جولييت) رغم رفض أهلها لذلك.

هي بشحمها ولحمها الثمين غافية هناك، نائلة الفاجرة العاصية الـ.. الغبية، نائلة التي خالفت النصوص ولم تتعرَّ مثلنا، لم يجذبني جسدُها يومًا رغم اختفاء معظمه عني.. ولكن الآن... حتى في نومها لم تتخل عن الملابس؟! يلتمع ما انكشف من جلدِها الناصع في ضوء القنديل، فلتثيريني الآن وتُحركي ولعي الخامد بداخلي منذ رأيت إيرما، لأتوق إلى نزع ملابسك.. بل تمزيقها تمزيقًا، ودخلت من النافذة، لم أحدث أي جلبةٍ، لكنها تقلبت في نومها وبدت أكثر إثارة.. لا بد أن تكون كذلك، ودنوت منها أكثر وأكثر.

سأفعلها عنوةً، سأتوب وأتوِّبها معي، لن أعودَ للمعصية ثانية يا محمد، وستحملين لي جميل صنيعي ما عشتِ يا بنت هُبل، يا حبيبتي، يا غاليتي، رفعتُ يديَّ نحوك قبل حتى أن أصلَ إليك، عيناي تلتهمانك وترشقان كلك، لا لم أنظر لوجهك الآن فما عاد يعنيني، أنا الآن أتوبُ يا

نائلـة... أتـوب بحـق، أشـتهي الجسـد في حـلال الإلـه، ومشـيتُ ببـطء ويـداي مـا زالتـا مرفوعتـيْن، تبغيانـك.. تريدانـك، وأخـيرًا وصلـتُ إليـك، بلغـتُ مقصـدي واسـتعدَّت يـداي للهبـوط.. كل شيء جاهـز.. كل حـواسي متيقظـة... سـأفعلها... سـأفعلها..

وهبطت يداي..

وأصابعي المنفرجة..

تستعدُّ لنهشك..

كمخالبِ الغراب..

كأنيابِ الذئب..

كأيدي الدبِّ يُمزق فريسته..

لم يتبق شيء..

أقصر مِن أقصر خيطٍ في حِيلك النافعة..

وتمضي يداي... ويتوحش وجهي الساعي للتوبة..

***

-١٧-

سأفعلها بك يا نائلة أخيرًا..

يا سببَ البلاء..

يا أحلى ما في دنيتي..

يدي تعرفُ طريقها..

ذكريات الكرخانات تتداعى..

رغباتي كلها تنتظر..

وباقي الجسد ينتظر و..

أكادُ أتلوى من الشهوة..

وهنا...

وهنا فقط...

ثبتت يداي...

شُلت يداي..

وبكت عيناي!

***

لم أستطع... وارتمت يداي إلى جانبيَّ، وسقطت دمعةٌ مني على وجهها، وددتُ لو قبلت جبهتها فقط، لكني تراجعتُ ناظرًا إليها عبر الدموع، لا أريد هذا.. لا أُريد هذه التوبة، بل أريد حضنًا منها ولو بالملابس، أبغي عناقًا يرد إليَّ روحي، أضمُّها وتضمُّني، وأبكي على منكبها غير آبهٍ أو خزيان، نائلة.. حبيبتي، ودفنتُ وجهي في يديَّ أنتحبُ، ويعلو نشيجي خفيضًا و..

- "أحمق"

سمعتُ هذه الكلمة تتردد في المكان:

- "أحمق"

سمعتُها ثانيةً بصوتٍ أعلى، أبعدتُ يديَّ عن وجهي، رأيتُ نائلة وقد استيقظت، ترمقني بغيظ كل البشر في سريرها، تجزُّ على أسنانها وتلوي شفتيْها احتقارًا، تصرخُ مشيرةً إليَّ:

- "أحمق"

تقومُ من السرير، تدفعني بعنفٍ وتصرخُ كأنها تبغي إصابتي بالصمم:

- "أحمااااق"

لا أفهم شيئًا، لماذا تنعتني بالأحمق؟ ربما تظنني سأؤذيها، سأعترفُ لها.. لقد تراجعتُ عما في بالك، المفترض أن تشكريني الآن و..

- "أنت يا هذا.. أيها الشيء القذرُ"

تصفعني بشدةٍ، وتُواصل الصراخ:

- "مَن تظن نفسك... هه؟ أخبرني... مَن تظن نفسك؟.. النبي يوسف؟"

النبي يوسف؟! وهل لدينا نبي يُدعى يوسف؟ لكني مع هذا، أظنني سمعتُ هذا الاسم من قبلُ.. منذ زمنٍ بعيدٍ، حاولتُ التفاهم معها، لكن غضبتها الهائلة حالت دون ذلك، ظلت تمطرني باللعنات وتضربُ ما تطوله من جسدي العاري.. تصرخ:

- "أنت لا شيء، أنت فسلٌ حقيرٌ، ستعيشُ وتموتُ غارقًا في ذنوبك، مهما نأيتَ عني وعمن سواي"

وفي اللحظة التالية، حدث ما فاق كل أحلامي رعبًا، نائلة.. وجهها الجميل صار ناحلًا أقرب إلى العظام، غار

اللحمُ البضُّ، وما تبقى منه تآكل وتعفَّن، يداها وقدماها، كل جسدها صار كالجثة.. جثة حية:

- "ما رأيك بي الآن؟ لنفعلها إذن، أيسعدك هذا؟.. أتحب أن تنالني هكذا؟ تلك هي الحقيقة، لكل منا وقته كي يعيشه، وقته الذي سيملؤه بالمعاصي ولا ريب، بعدها لا شيء سوى الدود والتراب والعفن، ومن بعد هذا الجحيم وحده، هكذا نحن البشر، كلنا للمعاصي والذنوب، كلنا للموت، كلنا للجحيم، وأنت ستموتُ بلا ذرة استمتاعٍ بحياتك القصيرة أيها الأحمااااااااق"

وتمدُّ يدها المتآكلة لتمسك بي، لا أتخيل أن يمسَّني شيء كهذا، قبضتُ طرف الملاءة من فوق السرير، سحبتها وغطيت نفسي سريعًا بها، اندفعتُ هاربًا من النافذة، سقطتُ خلال ذلك الارتفاع ألوذُ بنفسي متوقعًا الألم الجسيم، سمعت صوتَ نائلة الميتة يناديني:

- "إلى أين؟... لا مهرب من الجحيم يا إيساف"

***

-١٨-

أرتمي على الأرض في عنفٍ، لا أشعرُ بالألم قدر إحساسي بالصدمة.. بالهلع، ماذا حدث للتوِّ؟!.. نائلة ماتت أمامي؟! ولكن أي موت.. وأي معنى لما حصل؟ رفعتُ ظهري لأرى رد فعل الحارس المنتظر، كان مديرًا لي ظهره ولكن.. ما بال هذا السواد يُغطي ظهره؟ شيء منفوشٌ هناك لا أتبينه في الضوء الشحيح، لم تطل حيرتي، فقد استدار الرجل ليواجهني و.. الرجل، شهقتُ في رعبٍ أنظرُ إليه، لم يعد رجلًا.. وإلا فما ذاك الريش يُغطي جسده؟ ريش؟!.. ريش ومنقار، ومخالب يمدُّها إليَّ ناعقًا بصوتٍ يكاد يقتلني، صار كالمميتين، بل هو مميت حقيقي... لا يضع قناعًا، بل هو مزيجٌ بين رجلٍ وغراب.

الفرار.. الفرار من الهول، من الجحيم كما قالت نائلة، الجحيم الذي اكتمل ببرقٍ شقَّ السماء محيلًا الليل نهارًا،

وتلاه الرعدُ مرجفًا جسدي أكثر وأكثر، ثم المطر ينهمرُ كالسيل فوق رأسي مدرارًا، تابعتُ العدْو فقط أنهج وأبكي، هل الرجل الغراب خلفي؟ أتراه يتعقبني؟ أي كابوس هذا و.. نعم، هذا ليس إلا كابوسًا آخر من كوابيسي، نائلة تصيرُ جثةً أمام ناظري، والرجل يضحى غرابًا؟ أنا ما زلتُ في المسجد نائمًا، حلمتُ بنفسي أهربُ وأتوبُ ولكن.. لم أستطعْ مجددًا، أهو اختبار من الإله الغليظ القاسي وقد رسبت فيه كالمعتاد فاستحققتُ العقاب؟

تلتصقُ بي الملاءة بفعلِ المطر، يطعنني البردُ بسببها بألف خنجرٍ، لكني لم أتخل عنها ولا أدري لماذا، تعثرتُ في حجرٍ ضخمٍ، وحين هممتُ بالوقوف سمعتُ الصوت، صوت آلاف الغربان تنعقُ في ثورةٍ، من أين النعيق.. من أي ناحية حتى أسلك غيرها؟ الصوت يعلو ومِن كل الجهات، ويعود البرق منيرًا الدنيا.. لتتسعَ عيناي إثر المشهد الرهيب، السماء.. تزدحمُ بآلاف الرجال الغربان، يُحلقون وينعقون، يقصدون هدفًا واحدًا بلا شك، زلزلني هزيمُ الرعد مجددًا، رحتُ أجري لاهثًا كالمحموم، كل هذا من أجل نائلة وإيرما و.. واصطدمت بشيءٍ ما في الظلام، كان.. كانت إيرما! لكنها جثة حية أخرى، ناحلة متآكلة تُحدق بي في وحشيةٍ، قالت بصوتٍ كالهسيس:

- "فلتأتِ يا حبيبي.. لنتعبد معًا!"

لم تكن وحدها.. بل خلفها جثة أخرى.. بل اثنتان.. بل جيشٌ كاملٌ منهن، كلهن يطاردنني.. كلهن يبغين رأسي، إلى أين؟ إلى أي مكان أهربُ؟ عُدت أعدو موقنًا بهلاكي، يا لغضب الإله القاسي، الغربان الضخمة تطير نحوي، تنهشني بمخالبها ومناقيرها، وأيادي الجثث المتآكلة تمتد نحوي، لكن الملاءة حمتني من جديدٍ حتى تمزقت وتهلهلت وغرقتْ بالدماء، إلى متى؟ إلى متى العذاب والألم والرعب؟ فلتقتلني وتنهي كابوسي هذا، كدتُ أقفُ وأستسلمُ لها بالفعل كعادتي، لكني وجدت فجأة ذاك البناء أمامي، عاليًا يشمخ في الظلام، المسجد.. هو بأبراجه وقبابه وأهلّته، هرعتُ إلى بابه دون أن أتساءل كثيرًا عن سبب وجوده هنا، الكابوس يكتملُ على كل حالٍ.

دخلتُ المسجدَ مباشرةً أتحسس طريقي في ممراته، تتبعني جحافل المطاردين والمطاردات، يصلني صوتُ النعيق وهسهسة الجثث، وجدت زنزانةً مفتوحةً، دخلتها وأغلقتُ الباب فورًا، كانت زنزانتي... أو هي تُشبهها، بل هي.. لأن محمدًا كان واقفًا كأنه ينتظرني:

- "ما هذا الذي يغطيك؟"

صوته.. لم يعد مجروحًا مُنهكًا، بل هو ثابتٌ صُلب:

- "ملاءتها.. ملاءة نائلة"

- "ماذا حدث بالضبط؟"

وحكيتُ ما حدث بسرعةٍ، واستمع لي محمد بنفاد صبر حتى..

- "ولم تفعل شيئًا؟"

- "لم أستطع"

كرَّر محمد سؤاله ضاغطًا على كل كلمة:

- "لم.. تفعل.. شيئًا؟"

- "صدِّقني حاولتُ، ولكن.."

- "أحمق"

- "ولكن أنا.. "

- "أنت أحمق مَن عرفتُ في حياتي يا إيساف"

- "محمد اسمعني فقط.. هذا محض حلم و..."

- "ليس حلمًا وأنا لستُ محمد!"

وأزاح محمد قناعه، لم يكن هو... كان..

- "عرفتَ الآن إلى أيِّ مدى كنت أحمق؟"

***

-١٩-

أصرخُ في جزعٍ حين أُدرك أنه..

- "برو... برو يهوه؟!!!"

- "أتعـرفُ مـم يتكـوَّن اسـمي أصـلًا يـا أغبـى الخلـق؟... مـن اسـمين تعرفهمـا جيـدًا.. بروتـس ويهـوذا"

- "هذا ليس بحق... أنا ما زلت أحلم"

يُمسكني برو بعنفٍ من ملاءتي:

- "أنـا هـو يـا غبـي، أنـا بروتـس يهـوذا صديقـك الممثـل، كل مـا حـدث كان تمثيـلًا، هـذا ليـس بحلـمٍ، أنـا مـن أبلـغ عنـك أمـن العاهـرة ليقتـادوك إلـى هنـا، بعتـك يـا أحمـق بثلاثيـن محظيـة فاتنـة أتعبـد معهـن فـي الماخـور"

- "حتى أنت.. تفعل بي هذا؟ مستحيل!"

- "المستحيل هو أن تفهم يا أغبى الأغبياء، ما من شيء يُسمى صداقة إلا في أحلامك، لكم كرهتك أنت ومُثلك البلهاء، تزهد في أحلى لذائذ الحياة من أجل نظرةٍ وعناق! أبله وأحمق وغبي"

ويدفعني برو إلى حائط الزنزانة، أصطدم به وأسقط في ذهول، أمازال الحلم مستمرًا؟! لكني لم أشعر بالحقيقة كما أشعر بها الآن، ولكن أين الحقيقة... وأين الحلم؟

- "أنت لا تستحق العيش، مثلك ينبغي أن يموت.. فهمتني؟ يموت أبشع ميتة"

وراح برو يركلني في وجهي وسائر جسدي، بينما أفادي نفسي بيديَّ فقط:

- "تُغطي جسدك الآن بملاءة، يا للسخافة!"

وأردف صارخًا في وحشيةٍ وجذلٍ شديدٍ:

- "الآن فقط... ستنالُ عقابك، ستموتُ ببطءٍ جديرٍ بغبائك، ستموتُ ألف مرة ولن تعدم الألم الذي تستحقه، لن تحذر ماذا أعددت لك من عذاب يا إيساف، ليس بذئبٍ أو بغربان، بل بهذا"

ومرَّت لحظةٌ، سمعتُ فيها صوت خوارٍ أرعبني أكثر من أي رعدٍ، وجدتُ شيئًا هائلًا يقفُ أمامي، بلغ سقف

الزنزانة طولًا، لمع جسده الأبيض في ضوء الشعلة، الدب... الدب نفسه الذي أنقذني من الذئب في الحلم الأخير، يُكشر عن أنيابه الآن، يخورُ في نشوة المقبل على وجبةٍ شهيةٍ، يقف برو بيني وبينه، ضاحكًا في خبثٍ يرمقني بتشفٍّ، ويقول:

- "لن تنفعك ملاءتك الآن، مخالبه ستنفذ مباشرةً إلى لحمك"

يربت برو على فرو الدب باعتدادٍ:

- "لا تنتهِ منه سريعًا، ولن تكون المرة الأولى فكابوسنا طوييييييل"

ويُغادر برو الزنزانة تتعالى ضحكاته الشامتة، تاركًا الدب الأبيض يخور ويزوم، وكأنني أفكر في الهرب منه أو حتى مقاومته، فعلها بي الإله القاسي، هنا في هذه الزنزانة وعلى الأرض المنقوشة نحو قبلة العذاب، كُتبت نهاية إيساف برصيصة، حلمًا كان أم واقعًا.. أنا في الجحيم، هل كان ينبغي أن أقاوم غرائزي.. أن أدفع إيرما ونائلة عني؟!.. أن أترك الشهوة واللذة؟.. وأقود نفسي لهنا؟

***

الجُزْءُ الثَّانِي

صَدِيقٌ

– ١ –

كانت حياتي مستقرةً، خريج جامعي ينتظرني مستقبلٌ لا بأس به، معي مخطوبتي تُشاركني واقعي وأحلامي، في الواقع.. كانت أحلامي طبيعية!، حتى تغيَّر كل شيء وانقلبت حياتي البسيطةُ رأسًا على عقبٍ، وكل شيء بدأ بحلم، لم أرَ فيه نفسي أنا عبد الملك شريف مترجم اللغة اليابانية، بل رأيت شخصًا آخر، لم تربطني به العَلاقة التي تسمحُ بكل ما أحدثه من زلزلةٍ في عالمي، لكني لم أره لمرةٍ واحدةٍ، بل لعشرين مرةً في حلم يتكرر يوميًّا!

في الليلِ الكاحل المُدلهمِّ، أرى الذئب يُطارده ولا يرحمه، أراه يعدو نحو الجرف هناك حيث البحر في الأسفل يهدر مرعبًا، أراه يصرخ وأسمع من ينادي باسمه.. ربما أكون أنا؟! أناديه مُشفقًا على مصيره اليومي كعذابات الأساطير والخرافات.

في الليلـة العشريـن، رأيـتُ دبًّـا عملاقًـا ينقـذه، ينتشـله مـن الأرض انتشـالًا ويـولّي بـه فـرارًا مـن الذئـب، لكـن لحظـة.. الـدب.. الـدب لا يعـدو نحـو الأمـان، بـل إلى الجـرف نفسـه، المسـكين تمسـك بمنقـذه الأعمـى، ورأيـت الـدب يسـقط فـاردًا ذراعيْـه كأنـه الخـلاص، واقـترب المشـهد نحـو حافـة الجـرف.. لأرى المسـتغيث مـن الرمضـاء بالنـار.

لم أبـصر أحـدًا يسـبح أو يـضرب المـاء، غـاص الاثنـان بـلا عـودةٍ، أم لعـل الـدب أغـرق المسـكين الـذي وثـق بـه؟! وهنـا ينتهـي العـرضُ.. لأكمـل عشريـن ليلـةً مـن مشـاهدة عـذاب محمـود، هكـذا كان اسـمه كـما عرفتـه منـذ عامـين ونصـف، محمـود مصطفـى أو كـما اشـتهر بـين أصدقائـه منـذ حداثتـه بأغـرب اسـم شـهرة ذي طابعٍ شـعبي سـهل الحفـظ كـ(حنتيرة) و(توشـكى) ومـا شـابه، مـع أن الاسـم تشـيكي الأصـل! فعـلًا... كان الذئـبُ يُطـارد محمـود كافـكا في أحلامـي كل ليلـةٍ.

***

-٢-

الكل يمزحُ.. يأكلُ.. يصخبُ ويُعلن حريته على الملأ، غُصت باحةُ الكلية بالطلبة في كل أرجائها، في مجموعاتٍ من ثلاثة أو أكثر، غايتهم الاستمتاعُ الأقصى بهذه الاستراحة القصيرة من محاضرات اليوم، خاصة أنها- المحاضرات- لم تكن تعني لأكثرهم شيئًا رغم اختلاف دراستهم وكلياتهم، هنا فقط يجتمعُ الطبيب بالمهندس بالمحاسب بالمحامي، هنا فيما يجبرون على حضوره ويُسمى (التربية العسكرية).

كانت دورةً مكثفةً من أسبوعين، هدفُها تعريف الجنس الخشن من الطلبة بمبادئ العسكرية، طوابير الصباح حيث الحضور المبكر و(قيافة) الملابس الموحدة، صفا... انتباه.. صيحات وطنية لتحفيز الجموع على رفع أصواتهم عند تنفيذ الأوامر وتحريك أقدامهم وأياديهم بأسرع وأقوى ما يُمكن، كانت الدورةُ تعني ملًا لا نهاية له لأغلب الذين

لم يعتادوا حياةً كهذه، مع إلغاء مصطلح الهواتف الخلوية من قاموسنا تمامًا، وطبعًا كان سماعُ صوت الهاتف يعني الطرد وإعادة الدورة بلا نقاشٍ.

في هذا اليوم رأيته، منزويًا هناك في ركنٍ وحده، يجتمع الآخرون برفاقهم، ويجتمع هو بكتابه الضخم ممسكًا بدفتيْه غارقًا في عوالم أخرى، جذبني مشهده حين مررتُ به، ولم أقاوم عادتي السيئة بالنظر لغِلاف كل كتابٍ أراه، حين تكون دراستك مثلي تجد نفسك تفتش عن الكتب الجيدة ما سمحت لك الظروف، فقط لأقرأها باليابانية وأستزيد من الخبرة والعلم، وحين لمحت غِلاف الكتاب، أدركتُ أنني لن أفوتَ فرصة الحديث مع هذا الشخص حتى لو انتهت الاستراحة الآن، اقتربت منه هاشًّا باشًّا، أشير لكتابه بادئًا الكلام:

- "معذرة... هل لي أن أسألك عن رأيك في هذا الكتاب؟"

يرفعُ رأسه ناظرًا لي ببسمة من وجد شيئًا يسعده:

- "بالطبع.. تفضل أولًا!"

أشار لجانبه لأجلس، فعلتُ بينما أغلق هو الكتاب بعدما وضع تذكرة مترو حيث توقف على سبيل الـ bookmark، مدَّ يده مصافحًا

- "محمود مصطفى... هندسة ميكانيكية"

- "عبد الملك شريف... ألسن لغة يابانية"

- "هكذا... عرفتُ سرَّ انبهارك بالكتاب"

- "بالطبع... لا يقابل المرء كل يوم من يقرأ لهاروكي موراكامي مثلك!"

- "ولا يُقابل المرء كل يوم من يدرس تلك اللغة المعقدة كالعربية! موراكامي غني عن التعريف لكل متابعٍ للأدب العالمي... هو الأشهر بين مواطنيه".

أشرتُ للكتاب الراقد بين يديْه، وقلتُ:

- "صحيح... والآن ما رأيك في روايته الأشهر... (كافكا على الشاطئ)؟"

ألقى محمود قنبلته فورًا:

- "لم أحبها... فقاعةٌ أدبيةٌ جميلة المنظر.. ممتلئة بمحض هواء.. أو ربما فارغة تمامًا!"

اتسعت عيناي للحظةٍ، الرواية من عيون الأدب الياباني، بل لعلها أشهر وأنجح رواية يابانية في وقتنا الحالي، بيع منها آلاف النسخ، لاحظ محمود دهشتي فكتم ضحكاته، وأردف:

- "أعرفُ ما تُفكر فيه... إما أنني عبقري أو أغبى من سمك التونة الذي في الرواية! على كلٍّ حال.. هذه قراءتي الثانية لها حتى أريح ضميري في الحُكم".

زادت دهشتي، الرواية هائلة الحجم بالفعل، أكبر فقاعة أدبية في العالم لو صحَّ كلامه.. ويُعيد قراءتها ثانية رغم أنها لم تُعجبه! سألته عن قراءاته اليابانية الأخرى:

- "لم أقرأ سوى (نُعاس) لموراكامي أيضًا، وهذه راقتني كثيرًا، على كل حال لم أشتر (كافكا على الشاطئ) إلا بعد تفكيرٍ عميقٍ خشية أن تكون أقل من المتوقع كما حصل، لكني في النهاية فعلتُ واشتريتها لأن... في الواقع هناك عَلاقة ما بيني وبين تلك الرواية!"

- "عَلاقة؟!... أي عَلاقة؟"

وهنا ارتفع صوتٌ يهتفُ:

- "كافكا... ستبدأ المحاضرةُ الأخيرةُ.. بسرعة يا كافكاااااااااااا !"

كان صوتُ أحدهم ينادي محمودًا... يُناديه بكافكا!، باسمًا سألته بينما نقفُ معًا لنلحقَ بالمحاضرة:

- "أنت مشهورٌ بين رفاقك باسم كافكا؟ معقول؟.. يُنادونك هكذا!"

- "منذ كنتُ في الصف الخامس الابتدائي! لكني لم أسمِّي نفسي به كما فعل بطلُ الرواية، رآني أصحابي أقرأ روايات فرانز كافكا وقتها.. فسمُّوني هكذا! تحوَّل الاسم مع الوقت للطابع الشعبي العادي!وكأنه(مانجا)أو(سامبا)أوحتى(حنتيرة)!"

ابتسمنا معًا حيث وصلنا لباب المدرج ودلفنا منه مع المُسرعين، جلسنا متجاوريْن نقتنص الدقائق الأخيرة قبل الصمت التام أثناء المحاضرة، لاحظت أنه قال (مانجا) بمعنى الفاكهة، فقلت باسمًا:

- "على كل حال... المانجا عندنا في اليابانية أيضًا!"

كنتُ أعني المانجا في اليابان، وهي القصص المصورة هناك، ردَّ محمود بثقةٍ:

- "بالطبع.. وعلى ذكرها.. أحببتها أكثر ما أحببتُ أدب ذلك البلد"

العـالم كلـه يعشـق المانجـا في الواقـع، والأهـم منهـا.. المسلسـلات المأخـوذة عنهـا المسـماة بالأنمـي، قلـتُ مراقبًـا بـاب المـدرج آمـلًا في مـرور الوقـت أكـثر بـلا محـاضرةٍ:

- "تعني كونان وناروتو و Death note ؟"

- "بالـذات كونـان... ذلـك العبقـري الصغيـر الكبيـر! مـع أن الحيـاة لا تُشبـه قصصـه أبـدًا".

- "فعلًا... مِن الصعب أن تشبهها!"

واسـتمرَّ حديثـي الشـائق مـع محمـود، مـن حُسـن حظـي أننـي قابلتـه ذلـك اليـوم، ولم يقطـع حديثنـا الحـذِر أحـدٌ، حتـى صـار الأمـلُ كبـيرًا في...

- "انتبـاااااااه... سـيادة الرائـد مشـغول... المحاضـرة ألغيـت و..."

- "هيـــــــــــــــــــــه!!"

- "انتبـاااااااااااااااااااااااااااه، وإلا.... فليخـرج الجميـعُ بهـدوءٍ والطابـور غـدًا فـي موعـده!"

- "..... هيـــــــــــــــــــــه!!"

مرحـى! خرجـتُ ومحمـود والضحـكات لا تنتهـي بـذاك الخـبر الجميـل، نهتـفُ مـع الهاتفـين السـعداء! وأكملنـا حديثنا

حـول الأدب، تعارفنـا بأكـثر مـما يسـمح اللقـاء الأول وتكـررت جلسـاتنا في الأيـام القليلـة المتبقيـة مـن الـدورة، وبعدمـا انتهـت الـدورة صـار لقاؤنـا صعبًـا، لكننـا حافظنـا عليـه كل عـدة أشـهر، زيـارات بالصدفـة منـه لكليتـي أو العكـس، حفلة هنـا أو نشـاط طـلابي هنـاك، مـع هـذا لا أظننـا تقابلنـا بمـا يفـوق أصابـع اليـد الواحـدة عـددًا.

هكـذا لم أقـترب كثـيرًا مـن كافـكا، ظلـت العَلاقـة سـطحيةً إلى حـدٍّ كبـيرٍ، لم تتعـد الاهتمامـات الثقافيـة مـن أدبٍ ولغـةٍ ومـا شـابه، لكنـي أدركـتُ حقيقـةً أكيـدةً، هـو غريـب الأطـوار عجيبهـا، ليـس مـن النمـط الـذي تُطلـق عليـه (اجتماعـي) بضمـيرٍ مسـتريحٍ، كـما رأيتـه أول مـرة، ينتبـذ مكانًـا ليكـون وحـده بعيـدًا عـلى العيـون، كنـتُ أشـعرُ أحيانًـا أنـه يتجنـبُ مقابلتـي، فأنـا مـن أسـعى في كل مـرة لأقابلـه، لم يتهـرب منـي أبـدًا حـين أطلبـه، لكنـه لم يُعاملنـي بالمثـل لمـرةٍ واحـدةٍ.

لهـذا كانـت القطيعـةُ بينـي وبينـه، هـي تلـك الغيبـة التـي تطـول بـين الرفـاق ممـن جمعتهـم الظـروف، وحـين تنتهـي تلـك الظـروف يكـون انقطـاع الأواصر سـببًا محتومًـا للفـراق التدريجـي، تقـلُّ المقابـلات والمكالمـات شـيئًا فشـيئًا حتـى تنعـدم، هـو أيضًـا سـاعد في ذلـك بانعزالـه وميلـه للوحـدة كما أخبرتـك، وهكـذا اختفـى كافـكا عـن ناظـري وذاكـرتي حتـى

تخرجتُ في الجامعة وعملت مترجمًا بإحدى الشركات، هو الآن ينقصه عامٌ واحدٌ على التخرج.

لكنه عاد ليظهرَ في حياتي ثانية، في أحلامي على سبيل الدقة، ولعشرين يومًا حتى الآن، مع ذئبه ودبه كل مرة، لم أحبذّ الاتصال به مع الأيام الأولى، لكني مع الحلم السابع بدأتُ أسعى إليه، ضعْ نفسك مكاني، اليوم السابع مميز دائمًا على كل حال، لكن نيتي للاتصال لم تُكلل بالفعل، فرقم هاتفه ذهب مع هاتفي المسروق! لا أعرف عنوانه بالتفصيل، بريده الإلكتروني مُغلق على الدوام، لا فيس بوك، ولا أعرف صديقًا معينًا له، وحتى لو تذكرتُ وجه صديقه المقرب الوحيد الذي رأيته معه ذات مرة، فكيف عساني أجدُ هذا الصديق الآن؟!

في اليوم العشرين، سقط محمود في البحر أخيرًا، هوى مع الدب.. أو ربما أسقطه الدب كما شعرتُ أنا، صحوتُ غارقًا في العَرق، أشعر بأثر دبلة الخطوبة الضاغطة التي طوَّقت بنصري منذ أيامٍ، محمود... أين أنت؟.. ماذا بك؟.. ماذا يجري لك؟! وكيف السبيل إليك؟! وهنا تذكرت... هاتفه، مكتوب على كارت التربية العسكرية، هببتُ من سريري أتذكر، أين ذلك الكارت؟ نعم... في

كتـاب موراكامـي الـذي قرأتـه وقتهـا بوحـي مـن محمـود، روايـة (الغابـة النرويجيـة).. لكـن أيـن مكانهـا الآن؟!

لسـاعةٍ كاملـةٍ شرعـتُ أبحـثُ عـن الكتـاب وسـط أكـوام كتبـي، رمـوز (الكانجـي) اليابانيـة عـلى الأغلفـة تتلاقـى أمـام ناظـري، تذكـرت شـكل الكتـاب، الفتـاة الواقفـة وسـط الغابـة و... وجدتـه، الـكارت... الرقـم، والتقطـتُ الهاتـف الخلـوي مـن فـوق الكومـود، السـاعة تخطـت الثانيـة عـشرة ليـلًا، ليـس مهـمًّا، لكـن.. أيـردُّ الآن بعـد سـنتين ونصـف وفي هـذا الوقـت؟ أيبقـى الرقـم رقمـه.. و... جـرس!... جـرس الهاتـف!

رنـة.. رنتـان... ثلاثـة، رُدَّ يـا محمـود.. رد يـا كافـكا أو كُـفَّ عـن الظهـور في أحلامـي.. رد أرجـوك!...

- "ألو"

صـوتُ امـرأةٍ كبـيرة نسـبيًّا... أصمـتُ لوهلـةٍ، أتنحنـحُ وأرد كاتمًـا لهفتـي:

- "محمـود.. أليـس هـذا هاتـف محمـود كافـكا... أعنـي محمـود مصطفـى؟!"

- "أنت صديقه؟"

هكـذا ردت المـرأة بصـوتٍ كسـيرٍ واهـنٍ.. بـل صـوت أقـرب إلى البـكاء:

- "نعم.. أنا صديقه... أين هو.. أيمكنني التحدث معه؟"

- "هو بجانبي... محمود.. محمود.."

وانخرطت المرأةُ في البكاء الحار! معقول؟ لا.. لا تفعلها يا محمود... هل كان الدب يعني.. يعني.. وفي نفس اللحظة؟!! بعد سنتين ونصف يا محمود؟! وأغلقتُ الهاتفَ مذهولًا تلمع عيناي بدموعٍ حبيسةٍ، لم أعرف أني بهذه الشفافية، وأحلامي تقتربُ من الواقع هكذا!، ليتني اتصلت بك مع أول حلم وحذرتك يا كافكا، الحياة أحيانًا تُقدم لنا مواقف كهذه.. تندرج تحت بند الغرائبيات وما وراء الطبيعة، كان ينبغي أن أعرف!.. أن أُصدِّق أن ثمة أمورًا غيبيةً و.. رنين الهاتف، ينتزعني من خواطري، هل كنت لأتوقع أن الحياة بعد هذا الرنين قد تُصبح واحدةً من قصص كونان التي يكتبها جوشو أوياما ويصير عالمي كله يتلخص في كلمتين هما محمود وكافكا؟

***

-٣-

أنظـر في الهاتـف... تتجمَّـد دموعـي للحظـةٍ، رقـم محمـود ثانيـةً... أبتلـعُ ريقـي بصعوبـةٍ:

- "أ.. ألو؟!"

- "يبدو أن الخط انقطع يا بني... أنا والدة محمود"

ابتلعــتُ ريقــي ثانيــةً.. هنــاك غصَّــةٌ في حلقــي بــدأت تــزول:

- "هل محمود بخير؟!"

تصمت أم محمود... تتمالك نفسها وتُجيبني:

- "بخير.. بخير يا بني"

أتنفس الصعداء... أقول كمن أنقذوه من الغرق:

- "تقولين إنه بجانبك يا أمي... هل أستطيع الكلام معه إذن... أم أنه نائم؟"

- "لم تُخبرني باسمك يا عزيزي"

عرَّفتها بنفسي وبعلاقتي بكافكا، قلت إنني تذكرت محمود الآن وأحببتُ أن أكلمه قبل أن أنسى، الوقت متأخر لكنه سيُقدر ذلك حين يُكلمني و...

- "إذن فأنت لم تعرف بعد يا عبد الملك"

- "لم أعرف ماذا؟!"

- "محمود... محمود في المستشفى الجامعي.. راقد في غيبوبة"

- "غيبوبة؟!"

كرَّرتُ الكلمةَ كأنني لم أستوعبها.. فعلًا لم أفعل، قالت بمرارةٍ:

- "هو الآن.. كالميت، لكنه ما زال على قيد الحياة"

وعادت الأم للبكاء والنهنهة.. فيما فغرتُ فمي أتفكر في هذا الموقف العجيب، غيبوبة... ميت... على قيد الحياة؟

***

تأملتُ محمود مليًّا على سريره في المستشفى الجامعي، كالنائم فعلًا، لولا الخراطيم والمعدات الطبية العديدة التي تُحيط به، زاد عمره عدة سنوات، فعلت فيه الغيبوبةُ ما فعلت... والمرض، المرض؟... أي مرض هذا؟!، والداه جالسان معي في صمتٍ، يرمقان وحيدهما ويرمقانني بشيء من الامتنان بين الحين والآخر.

خرجت دمعتان رغمًا عني... يا لسخافتي، يبدو أنني تأثرت حقًّا بطباع اليابان ومغالاتهم في المشاعر، لمحتني الأم فانهمرت دموعُها من جديدٍ، وظل الأب ساهمًا في نظره لابنه، اعتذرت لهما فتقبلا مني بهزٍّ رأسيهما نفيًا، لم آتِ لأزيد من جزعهما، كان لا بد لي من السؤال، انتظرتُ اللحظة المناسبة وسألتُ الأم، بعينين مُحمرَّتيْن كليلتيْن نظرتْ لابنها وطفقتْ تحكي، انتبهتُ لكلماتها بكل حواسي.

حكت الأم نصف الثكلى، حكت عن ابنها طالب الهندسة، كيف قضى عامه الأول والثاني سعيدًا بالدراسة والكلية، بل كان عامه الثاني أسعد ما يكون حين حصل على تقدير جيد جدًّا متأخرًا عن الامتياز بدرجاتٍ قلائل، ذكرتْ أن ابنها كان يُقدس تقدير الكلية، كان يعتبره مقياسه الوحيد للسعادة وجدوى الأيام، بعدها حدث ما حدث، تعثر الطالب السعيد، تعثَّر حتى نال المقبول مع

الرسوب في مادتين في السنة الثالثة، وكيف أنها- الأم- لامته برفقٍ وطلبت منه التعويض للعام التالي، حكت كيف قضى عامه بعدها كالهائم في عالمٍ آخر، نظراته كمجذوبي الحسين أو العباقرة المهووسين، ينسحب من حياته العادية بالتدريج ليغرقَ بين الكتب والدراسة ولا شيء سواهما، الوقت كله للمذاكرة، يقتطع بالكاد ما يكفي للطعام والحمَّام والكلمات المقتضبة مع الأهل، لا أصحاب... فقط الكتب هي أصحابه، كتب الدراسة فقط لأنه قاطع الأدب، الكتب المقررة لم تعد كافية، والمراجع ملأت مكتبته الصغيرة التي لم تكفِ هي الأخرى، حاول الوالدان إخراجه مما هو فيه لكنه كان سعيدًا، يبتسم ويؤكد أنه ليس ثمة حال أفضل مما هو فيه.

كالمتوقع، بل بما فاق المتوقع، حقق محمود الامتياز في كل المواد، لم ينقص سوى خمس درجات فقط! كلها درجات تقديرية لا علاقة لها بمجهوده، الأول على دفعته بلا جدالٍ، بل الأول بهذه الدرجة في تاريخ الكلية، أصابت الدهشة العارمة كل أساتذته، هذا ليس بإنسانٍ، هذا أينشتاين.. ربما الخوارزمي، لا شيء آخر.

ماذا حدث بعد هذا... لا شيء... لا شيء ألبتة، وجدناه منكفئًا على مكتبه غائبًا عن الواقع، نقلناه للمستشفى...

شاهده من شاء الله من الأطباء، كلهم أعلنوها بدهشةٍ وعجزٍ، صدمة أدت لغيبوبةٍ، وهل الصدمات تؤدي لغيبوبة؟ وأي صدمة هذه.. أي صدمة لطالب هو الأول... هو الأفضل على الإطلاق، لم نفهم ولم نعرف ماذا حلَّ به وكيف حلَّ، وعرفنا أن محمود ليس وحده في هذا، كثيرون حول العالم غائبون منذ سنين... بل منذ عقود، لكن هل يتخيل المرء يومًا أن يصيب ابنه ما أصاب محمود....؟

***

جلست بجانبه مفكرًا، لم يعد لبقائي فائدة، كافكا... أين أنت الآن؟ وما الصدمة التي نالت منك، هي صدمة نفسية ولكن... مَن لنا بمعرفتها الآن وأنت معنا بالجسد فقط، أما النفس فالله وحده الأعلم بها، حانت مني التفاتة فرأيت شيئًا ينتمي إليك على الكومود بجانب سريرك، حتمًا ينتمي إليك، رواية صغيرة الحجم عرفتُ في غِلافها رسومات جمال قطب المتقنة، كانت لنجيب محفوظ، بحروفٍ مرسومةٍ بتفننٍ بديعٍ كُتب اسمها... حديث الصباح والمساء.

تلاحظ أمك نظراتي للرواية، ترد في وهنٍ:

- "كانت آخر ما قرأ قبل... حين كان يقرأ غير الهندسة"

تصفحتُ الرواية، رواية عجيبة بحق لذاك الأديب الأعجب، شخصيات كثيرة حكي عنها محفوظ، لكل شخصية صفحتان أو ثلاثة في ما يُشبه سيرةً ذاتيةً مختصرةً جدًّا معنونةً بحسب اسم صاحبها، الرواية محض قاموس كبير لشجرة عائلة عاشت منذ الحملة الفرنسية وحتى حرب السادس من أكتوبر، كنت أعرف فكرة عن الرواية بحكم قراءتي للكثير من أعمال محفوظ المترجمة، الرواية تجعدت صفحاتها من كثرة القراءة، في الغِلاف الأمامي، كتب محمود كلمات قلائل:

- "بدأتها في ٢٠١٥/٤/٢٢"

والغِلاف الخلفي... هناك كلماتٌ أخرى عن تاريخ إنهائه للرواية و... وهناك رسمة.. رسمة استرعت انتباهي، حدقت بها لخمس دقائق كاملة... و.. فورًا هتفتُ:

- "أمي.. ما هذا الرسم؟... أمحمود من رسم هذا؟"

استغربت الأم لهفتي في السؤال، وقال الأب منزعجًا:

- "هو رسمه بالفعل... هل من مشكلة؟!"

- "متى... متى رسم هذه الرسمة؟"

- "كان يرسمها كثيرًا في كتبه ودفاتره منذ زمنٍ"

ردت الأم ولم تفارق الدهشة محياها إثر تغيُّري المفاجئ، لكني كنتُ أشد منها دهشةً بأضعاف مضاعفة.

الرسمة... عجيبة حقًّا، تحسبها في البداية تُمثل فراشة فضية بالقلم الرصاص، جناحين كبيرين متجاورين، أسفلهما جناحان أصغر، الرسمة متماثلة كفراشة تفرد جناحيها بالفعل ولكن... دقق النظر معي قليلًا، الجناحان الكبيران.. كل منهما يُمثل شكلًا منفردًا، رسمًا مستقلًا يُمثل حيوانًا، لم أعرف أن كافكا كان مولعًا بالرسم، لكني عرفتُ الآن أني قد كُشف عني الحجاب!

أين كونان الآن.. أين شيرلوك هولمز.. بل أين رفعت إسماعيل؟ فلتحضروا جميعًا يا سادة وتشاركوني حيرتي!!

فالجناح الكبير الأيمن كان ذئبًا...

والجناح الأيسر كان... كان دبًّا!!

دب وذئب!... و... وما العمل الآن؟!!

***

– ٤ –

دُبٌّ وذئـبٌ ومحمـود كافـكا، وأحـلام عجيبـة تسـتقرئ الواقـع، حلمـي ليـس كأي حلـم عابـر إذن، محمـود يرسـم دبًّـا وذئبًـا، فيطـارداه في حُلمـي؟! ولمـاذا الـدب والذئـب بالـذات؟.. محمـود كان يُعـاني، يبـدو هـذا مـن حلمـي، هـل لـه معنـى آخـر؟!

و... لحظـة، جناحـا الفراشـة السـفليان، أصغـر قليـلًا ليُعطيـا شـكلًا أجمـل للفراشـة، حدقـت بهـما طويـلًا فوجدت.. وجدتهـما قطًّـا وغرابًـا! مهـلًا!.. هـل مـن حيوانـات أخـرى؟! منـذ متـى ومحمـود يرسـم هـذه الأشـكال و... ثمـة سـؤالٌ آخـر هنـا ينبغـي أن أسـأله:

ـ "أمي.. من فضلك.. منذ متى ومحمود في الغيبوبة؟"

حـدَّق بي الأب في كراهيـةٍ! فقـد ذكـرت حالـة محمـود بـكل وضـوحٍ في حـضرة أمـه المكلومـة:

- "آسف.. لم أقصد، كل ما أريده هو مصلحة محمود"

- "مصلحته؟... وهل سؤالك هذا يعني مصلحته في شيء؟"

قالها أبو محمود في غيظٍ مكظومٍ، وجدتُ نفسي أرد متلعثمًا:

- "ربما، ولكن.. أخبرني فقط من فضلك!"

- "منذ عشرين يومًا.. ارتحت الآن؟!"

أجابني الأب في نفاد صبرٍ.. وبشيء من الحدة، لا يا عمي، لم أرتح.. ويبدو أنني لن أرتاحَ لوقتٍ طويلٍ.

***

لم يزرني كافكا منذ أسقطه الدب في البحر، فقررتُ أنا زيارته! بعد شهرٍ كاملٍ من زيارة المستشفى، وجدتني واقفًا أمام باب شقته... أتأمل الباب بعمقٍ! أتأمل الباب؟!!.. ولم لا أفعل؟!! لقد بقيت لربع ساعة كاملة أحدق ببنايته وشارعه، بعدما تبعت أمه في المواصلات حتى بيتهم دون أن تلاحظني، ما الذي أفعله بالضبط؟ هل جُننت أنا الآخر؟! لا.. لم أُجن، كافكا إصابته نفسية ولا شك.. فلنتحرَّ الآن ما تبقى من نفسه!

ولامتني نفسي للمرة الألف، تتحرى؟!.. هل تحسب نفسك المُحقق كونان بالفعل؟ وحتى لو افترضنا هذا...

أيـن الجثـة؟... أعنـي أيـن النفـس التـي سـتتحرى عنهـا، قلنـا هـذا مـن قبـل و... و..

"تررررررررررررررررررررن"

أخرسـتُ نفـسي اللائمـة بكبـسي لجـرس المنـزل، والآن فلأسـتعد بمـا سـأقوله لأمـك يـا كافـكا:

- "أمـي.. ابنـك كافـكا- نعـم يُسـمونه كافـكا- يُعانـي مـن مشـكلةٍ نفسـيةٍ ولا شـك، أعنـي كان يُعانـي... أعنـي مـا زال حتمًـا يُعانـي لـو كان بيننـا و...، المهـم أننـي حلمـتُ بابنـك يُطـارده ذئـبٌ ودُبٌّ! تخيلـي هـذا يـا سـيدتي.. ذئـب ودب كاللذيـن يرسـمهما كثيـرًا، هـل يعنـي هـذا شـيئًا؟! بالطبـع.. ليـس الأمـرُ صدفـةً وهـذا يعنـي أننـي لا بـد أن أبحـث فيمـا خلفـه محمـود وراءه لأعالجـه مـن مرضـه، أنـا ألسـن يابانـي ولكنـي أفقـه قليـلًا فـي علـم النفـس مـن قراءاتـي المترجمـة فيـه و... كلامـي مقنـع.. أليـس كذلـك؟!"

- "تررررررررررررن... تررررررن... تررن"

لا رد... يبـدو أن القـدر يُريـد إنقـاذي مـن لوثتـي، فلأفـرَّ الآن قبـل فـوات الأوان!

***

ـ٥ـ

ـ "عبد الملك... أهلًا و... إلى أين تذهب؟"

تفتح الأم الباب بينما ألوذُ بفرصة الهرب، عدتُ وقلتُ في ترددٍ:

ـ "فـ.. في الواقع، خفتُ أن تكوني غاضبةً مني!"

تربت على كتفي في امتنانٍ:

ـ "لا تقل هذا... ولكن.. لماذا أتيتَ؟! محمود ما زال.. هناك"

ـ "أعرف يا أمي... سأخبرك بكل شيء.. هل عمي بالداخل؟!"

ـ "هو نائم.. كنا ننوي الذهاب لمحمود ليلًا.. أنت تعرف، لا يمكننا ترك أعمالنا.. ولكن لماذا نتحدثُ على الباب؟ تفضل يا عبده... كيف تُحب شايك؟"

جلستُ على أحد كراسي الردهة، أشعرُ بهواء مروحة السقف يُطيب مسامي بعد صهد الشارع، وأفكر في أفضل ما يمكن قوله:

- "لا داعي يا أمي.. أرجوك اسمعيني فقط... كافكا... أعني محمود زارني في الحلم"

كست ملامح الأم الفرحة فورًا:

- "حقًّا؟!... زارك؟... وكيف كان؟"

- "هو بخير.. لا أذكر الحلم للأسف... لكنني... لكنني فكرتُ في طريقةٍ لأساعده بها"

بانت المرارة على وجهها ببطءٍ:

- "تساعده؟!.. كيف يا بني؟! محمود الآن مصيره بيد الله وحده، لا يعرفون سببًا لغيبوبته، مع هذا قد يفيق في أي لحظةٍ"

وأضافت بحسرةٍ:

- "وربما أيضًا بعد شهورٍ أو... "

- "أمي... أنا قادرٌ على المساعدة لو سمحتِ لي فقط!"

- "أنت لست طبيبًا يا عبده على ما أذكر!.. ماذا تقصد بالضبط؟"

- "محمود... محمود مُصابٌ بعملٍ سفلي يا أمي!"

***

الصدمة.. الصدمة وحدها تملَّكت أم محمود، بيد أن صدمتي لم تقل عنها في شيء! كيف خرج مني هذا التبرير؟! وكيف وردت هذه الفكرة في ذهني في لحظةٍ واحدةٍ؟!! كنتُ في حاجةٍ إلى تبريرٍ وجرى على لساني في الوقت المناسب، أسعفني به عقلي فقط، لكنه أحدث التأثير المنشود، رفعت الأم الجزْعى يدها لتغطي فمها إثر المفاجأة:

- "عمل.. عمل سفلي؟! ما الذي تقوله؟!"

فلتكمل عملك الآن للنهاية يا عقلي النيِّر، أتحفني بالمزيد:

- "معظم حالات الغيبوبة تنشأ عن الحوادث العادية، حادثة سير تؤدي لإصابةٍ بالغةٍ بالرأس، ينتج عنها الغيبوبة، أما ولدك فلم يصبه شيء، الأمرُ يُثير الشك.. هه؟ فلنفكر بشيءٍ آخر، السِّحر مذكورٌ في

القـرآن الكريـم، ابنـك نابغـة وعبقـري، أعـداؤه كثيـرون ولا شـك، حسَّـاده ومنافسـوه، أسـاتذته الذيـن اسـتاءوا أن يهزمهـم طالـب لديهـم!"

كلامـي عـن أعـداء محمـود يبـدو مُبالغًـا فيـه، لكـن الأم الواهنـة تمسَّـكت بخيـط الأمـل الوحيـد الـذي رمـاه لهـا مجنـونٌ مثـلي:

- "لا أدري يـا بنـي.. فكرنـا فـي الحسـد بالفعـل، أجرينـا الرقيـة الشـرعية وننـوي عمـل الحجامـة، لكـن السـحر لـم يخطـر ببالنـا قـط، هـل تعـرف فـي هـذه الأمـور؟!"

بـدا أن خطتـي في سـبيلها للنجـاح، تشـجعت أكـثر... تذكَّـرتُ كل مـا سـمعتُ وقـرأت عـن هـذه الأمـور:

- "بعـض الشـيء... هنـاك العمـل المأكـول والمشـروب والمدفـون، والعمـل المكتـوب علـى جلـد قرمـوط! هنـاك السـفلي والعلـوي والربـط و... والزايرجـة.. نعـم والكابـالا طبعًـا.. الكثيـر، لا أدري مـا أصـاب محمـود بالضبـط ولكـن..."

- "ألم تقل إنه عملٌ سفلي؟!"

- "بـ.. بلـى، هـذا مجـرد تخميـن مبدئـي، أحـب فقـط أن أتأكـد"

- "وكيف ستتأكد؟"

- "بالبحث يا أمي.. أريد أن أبحث في أشياء محمود التي يحتمل أن يكون بها العمل، كتبه... دفاتره، كتاباته ورسوماته، تلك الرسمة تعني أكثر من مجرد دب وذئب.. بالطبع، أريد مقابلة أصدقائه والحديث معهم عنه، ومعرفة أعدائه... أريد، أريد أن أتحرَّى عن حياة محمود... وأبحث عن الخلل فيها"

أنهيتُ كلامي.. أصمتُ في انتظار الرد، وتصمت المرأةُ الكسيرةُ... تُنكس رأسها حائرةً مفكرةً، تقومُ وتتركني بلا كلمةٍ، ربما لتستشير زوجها، أو تحضره ليطردني بلا رجعةٍ.

كافكا.. سامحني يا صديقي، لا أدري هل خواطري حقًّا مُجديةٌ؟! أم هي محض هلوسة فكرية عقيمة، كل ما أعرفه.. أنني سأفعل هذا من أجلك، حلمك يُناديني لك ولعالمك، أودُّ أن أقترب منك ما كان ينبغي أن أقترب قبل القطيعة بيننا، أريدُ أن أرى الدنيا بعينك أولًا... ولا أدري شيئًا عما بعد هذا.

-٦-

لم تتأخر والدة محمود كثيرًا، أقبلت تمسك شيئًا بيمناها.. أهذه بسمةٌ حزينةٌ تتلاعبُ بشفتيها أم...

- "تفضل يا بني!"

مدَّت يدها المفتوحة أمامي، استقرَّ بها هاتفٌ خلوي مُغبر:

- "أهذا... هاتف كافكا؟"

تفتعل الأم ابتسامةً أكبر.. من أجل تشجيعي:

- "هو بعينه... لم يعد يرنُّ كثيرًا كما تعرف.. عليه ستجد أرقام معارفه"

لانت أساريري.. وحانت مني ابتسامةٌ شرعيةٌ:

- "أشكرك كثيرًا يا أمي.. سأفعل ما بوسعي... سـ.. سأعيده.. أشعر بهذا!"

وكنتُ أشعر بهذا فعلًا! أشارت الأم للغرفة التي دخلتها للتو وقالت بودٍّ:

- "تلك غرفته... لم يمسَّها أحدٌ منذ تركها.. وحيدنا كما تعرف، ابحث كما تشاء، أنت الأملُ الوحيدُ لي الآن.. ربما تذكُّرك لمحمود جاء في وقته، سأعدُّ لك الشاي، بالمناسبة... هل تعرف عكس كلمة ياباني؟"

***

غرفته... صغيرةٌ تصلحُ لشخصٍ واحدٍ، لكنها بدت لي عالمًا كاملًا من الأسرار، هل أبالغ؟.. أبدًا، نويت أن أعرف كل صغيرةٍ وكبيرةٍ في حياته.. هل أقدر؟ سأبدأ بالقراءة.. عشق كافكا الأزلي، مكتبته باهرةٌ بارزةٌ تحتلُّ جدارًا كاملًا، ميَّزتُ فيها كعوب فرانز كافكا من بعيدٍ، يُخصص محمود رفًّا لكل نوعٍ.. هذا للرعب.. هذا للفانتازيا.. هذا للأدب الساخر، بدأتُ بالرفِّ العلوي، به كتبٌ منوعةٌ لا تخص شخصًا بعينه أو نوعًا واحدًا، تصفحت أول الكتب... عتيقًا مهترئًا:

"الفيزياء المسلية... الجزء الثاني... ياكوف بيرلمان"

الكتاب الأشهر والأعظم في شرح الفيزياء ببساطةٍ ممتعةٍ، بالطبع... فهو مهندس.. مَن مثله أولى بقراءة

كتاب كهذا؟ الشخبطة والحواشي تملأ الكتاب، كافكا حتمًا من الأشخاص المولعين بملء أي فراغٍ يرونه، رسومات مفردة لذئاب ودببة فقط، لكن لا قطط أو غربان.. ولا فراشة كاملة، قصدت الصفحة الأخيرة، تاريخ الانتهاء من الكتاب.. يعود لسنةٍ فاتت، آخر أيام عهده بالأدب، أحضرتُ الكتاب التالي:

"البؤساء.. فيكتور هوجو"

"الشحاذ.. نجيب محفوظ"

"هاري بوتر وجماعة العنقاء... ج. ك. رولينج"

"الضفيرة السوداء... محمد عبد الحليم عبد الله"

"بيت الياسمين... إبراهيم عبد المجيد"

"القصص الحكيم... الفيلسوف إيسوب"

الروايات... حبه العتيد، كانت الكتبُ بترتيب القراءة حسب تواريخ الابتداء والانتهاء، إذن فهذا هو رفُّ القراءة الحالية لمحمود، أكملتُ الصف حتى وصلت لروايةٍ أخرى، كانت بعيدةً عن السابقة لها في وقت القراءة، هناك فترةٌ هجر فيها القراءة إذن، لكنه عاد إليها بقوةٍ حتى إنه أنهى خمس رواياتٍ في زمنٍ قياسي هو خمسة أيام بالضبط، وهي بالترتيب:

- السقا مات... يوسف السباعي
- منافي الرب... أشرف الخمايسي
- ملحمة جلجاميش
- مجلد نوفيلات... ليو تولستوي

والخامسة كانت حديث الصباح والمساء، كانت آخر ما قرأ كافكا كما ألمحت أمه، هل لهذا معنى ما؟! أسائل نفسي من جديدٍ، هكذا عرفتُ قراءات محمود الأخيرة، ما من كتبٍ أخرى قرأها بعد الحديث.. الغرفة لم تُمس منذ ذاك الوقت، ومكتبته لا أحد يقربها.

التقطتُ الكتبَ وتصفحتها، الدب والذئب في كلِّ مكانٍ ولكن.. القط والغراب، بدأ كافكا برسمها أخيرًا في السقا مات، ماذا عن الفراشة؟ وجدتها للمرة الأولى في ملحمة جلجاميش، إذن فالفراشة وُلدت مع تلك القصص، لماذا هاته الروايات الخمس بالذات؟ هل لهذا أي معنى؟

***

إلى مكتب كافكا و... المكتب! أو سطح المكتب المغطى بفرخٍ ورقي كبيرٍ.. لم يدعه محمود في حاله هو الآخر، ازدان برسوماتٍ هندسيةٍ جعلته جديرًا بمكتب نيكولاس

أوتـو نفسـه، مـع الكثـير مـن الفراشـات المليئـة بالدببـة والذئـاب والغربـان والقطـط!! عبـاراتٌ كثـيرةٌ بالعربيـة والإنجليزيـة وحتـى اليابانيـة كتبهـا كافـكا بـين الرسـومات في أنحـاء الفـرخ الورقـي:

"يجب ألا ألفظ الأكاذيب"... بالإنجليزية

"ثمة زهور لا تذبل أبدًا"

"قم للصلاة يرضى عنك الله"

"الكسل لذيذ بس مش مفيد!"

"حبيتك بالشتاء وكرهتك بالصيف!"

"شو كانت حلوة الليالي والهوى يبقى ناطرنا"

"هناك حقيقة واحدة فقط"... باليابانية

"وكأننـي أعيـشُ في إبيقوريـا أو مزدكيـا أو فرويديـا أو بومبـي!!!"

عبـاراتٌ ليـس بينهـا أيُّ رابـطٍ، عـدا كلـمات أغـاني فـيروز المزخرفـة، لفتـت نظـري فقـط العبـارة الثانيـة والأخـيرة، فالثانيـة عبـارةٌ شـاعريةٌ ملهمـةٌ!.. يعتبرهـا زهـرةً لا تذبـل، محمـود لديـه جانبـه العاطفـي بـكل تأكيـدٍ، وبـكل كل التأكيـد.. سـيكون لهـذا الجانـب نصيـبُ الأسـد مـن بحثـي،

السرُّ كله هناك ولا بد من البحثِ عن الأنثى كما قال بونابرت، ماذا عن الجملة الأخيرة؟.. أربعة أماكن غريبة للعيش فيها! هل هي مدنٌ موجودةٌ بالفعل.. لم أسمع عنها قط، سجَّلتها سريعًا في المفكرة.

والآن لأدراج محمود الثلاثة في المكتب، الدرجان الأول والثاني ازدحما بالكتب والدفاتر بما فيها من رسومات الميكانيكا ومعادلاتها، لا تختلفُ عن ظهر المكتب في شيء، الدرج الثالث امتلأ بأشياء عديدةٍ تخص الحاسوب، أسطوانات مدمجة... فأرة... وصلات وذراعات ألعاب، مع الكثير من عبوات العطر الفارغة كأنه يهوى جمعها، فتحت دولاب كافكا، المعاطف الطويلة إياها التي تُذكرك بشيرلوك هولمز، أكثر من معطفٍ بكل الألوان، آليتُ تفتيشَ جيوبها سريعًا، لعلي أجدُ شيئًا مهمًّا، لم أجد سوى عبوة عطرٍ فارغةٍ كالتي بالدرج.. تلك التي تحتوي (بلية)، وهنا تذكرتُ... أنا نفسي رأيتُ هذه العبوة من قبل.. أفتحُها، أستنشقُ ما بقي من شذاها.. أتذكر!

***

- "كانت وجبةً مشبعةً حقًّا.. ومؤلمةً أيضًا... تبًّا لشطة الزيت.. وتبًّا للكشري الذي نصحتني به"

قلتها لمحمود، بينما أخرجَ هو عبوة عطر من جيبه:

- "أي خدمة؟.. والآن يدك لو سمحت!"

أُجيبه مشاكسًا:

- "سأسمحُ مضطرًا... هي سُنة على كل حال... أريجاتزوه"

يمسح بالبلية ظهر يدي..

- "ما رأيك؟"

أشتمُّها بعمقٍ:

- "فُل... أليس كذلك؟!"

- "تقريبًا!"

- "لم تجد غير الفُل؟!... أنت شاب يا حبيبي.. أين الهيوجو والسكيب أو حتى المسك الإنجليزي؟!"

***

عبوة الفُل الزجاجية هذه، أهي في جيبه منذ ذلك الوقت؟!.. مستحيل، هو يُحب العطور إذن بدليل أنقاض العبوات في درج المكتب، لا بد أن أسأل أمه عنها و... ويلي! كيف نسيت أمه، كيف نسيت سؤالها عن كل ما

فـات وعـن اللغـز الأكـبر حتـى الآن... الرسـمة، فلأفعـل هـذا الآن و... وهنـا سـمعت زعيـقَ الأب، الأب الـذي اسـتيقظ أو أيقظتـه الأم لتخـبره بالضيـف، لا أشـعرُ أن الأب سـيقتنعُ بي و...

- "ماذا أتى بسي (زفت) هذا؟"

- "اهدأ يا مصطفى... اهدأ"

يعلـو صـوتُ الأبويـن، هنـا لا بـد أن ينخفـضَ صـوتي أنـا، قنعـت بالكنـز الرابـض في جيبـي، خرجـت مـن الغرفـة، كـدت أفتـح البـاب وأذهـب مـن نفـسي ولكـن.. لا بـد أن هـذا سـيُصعب موقفـي أكـثر، وقفـتُ في الردهـة هاتفًـا:

- "عمي... بعد إذنك... سأذهب الآن"

- "انتظر يا فتى!"

خرج الأبُ يرمقني في كراهيةٍ:

- "عمـل سُـفلي.. تقـول إنـه عمـل سُـفلي، لـمَ لا يكـون العمـلُ مـن صنعـك أنـت؟!"

- "مصطفى... أرجوك!"

تقـفُ الأم باكيـةً خلفـه، تنظـرُ لي معتـذرةً هامسـةً: (معلـش)

- "هـو يريـد شـيئًا لا نفهمـه، لمـاذا يبحـثُ فـي أشـياء محمـود؟ لا نعلـم أهـو صديـق أم عـدو، اسـمعني باحتـرام يـا أسـتاذ عبـد الملـك... لا تُرِنـا وجهـك ثانيـة.. وإلا.."

***

-٧-

- "لا داعي يا عمي.. كنتُ مغادرًا بالفعل.. آسف على الإزعاج"

واتجهتُ نحو الباب بلا كلمةٍ أخرى، أنظرُ في الأرضِ أتصبَّب حرجًا، لكن هل ألومه؟! له الحق في ظنه، وإن كان لي الحق أيضًا في فعلي... كما أشعر! هل حصلتُ على ما يكفيني من عالم كافكا؟! ليس بعد... هاتفه، منبع أسرار حقيقي كنتُ محظوظًا بلقياه، انتظرت حتى ركبت الحافلة وجلستُ مستنشقًا الهواء الحار الرطب، أخرجت الهاتف، رأيتُ وجهي أول ما طالعت شاشته، فالخلفية كانت الكاميرا الأمامية نفسها... غريبة، ولماذا تكون الخلفية هكذا؟ بدأتُ أول بحثي في الأسماء عن كلمة (أمي) قبل كل شيء.

- "السلام عليكم... أنا عبد الملك يا أمي"

- "بني... آسفة حقًا و..."
- "لا عليك أبدًا.. أنا الآسف.. أودُّ فقط أن أسألك عن بعض الأمور المهمة"
- "تفضل.. اسأل كما تشاء"

***

وسألتها عن كل شيء، بدأتُ بالرسمة ومعناها، قالت إنهما كثيرًا ما سألاه عنها ولم يُجب إجابةً شافيةً، قال إنه متأثرٌ بهاري بوتر وشعار مدرسته، أما الكائنات الأربعة في الفراشة فلا يعرفان عنها شيئًا، ماذا عن عبوات العطر الزجاجية؟ قالت إنه يُحب العطور كثيرًا منذ صغره ويحمل معه عبوةً في جيبه أغلب الوقت، السبب... لا نعرف، لن أسأل ولدي عن سبب حبه للعطور... هو يحبها وكفى.

لكن ماذا عن أصحابه المقربين؟ أخبرتني ما توقعته، كان ابنها وحيدًا بلا أصدقاء طيلة عمره باستثناء القليل، هناك صديقه الوحيد الذي يعدُّانه مقربًا له، إذ جمعتهما الصداقة في المدرسة منذ حداثتهما، رغم أن هذه الصداقة خفَّت كثيرًا حتى ليحسباها مُحيت تمامًا، منذ افترق كافكا وصديقه في المدرسة الثانوية وما تلاها من سني

الجامعة وانشغال كلٍّ منهما بحياته، الجامعة... بالتأكيد كان لديه زملاء محاضرات و(سكاشن) وما شابه، الجامعة تفرض عليك صداقة أحدهم أو زمالته على الأقل، أخبرتني باسم واحدٍ فقط، لا شك أنه صديق الجامعة الذي رأيته من قبل، تضيقُ دائرة البحث ولا أعرف أهذا في صالح القضية أم ضدها!... قضية؟!.. قضية الفتى الغائب!

ماذا عن حب الجامعة يا أمي؟ أليس لمحمود فتاة هناك؟ الفتيات... لا يتكلم معهن بالطبع فضلًا عن صداقتهن، لا نعرف لمحمود صديقة.. هذا متوقعٌ، أصحاب محمود... هؤلاء هم مفتاحي لفهمه، خاصة صديق الطفولة هذا، ينبغي أن أقابلهم وأستمع لهم، معي أرقامهم كلها على الهاتف، سألتها شيئًا آخر مهمًّا... كتابات كافكا، كان يقرأ كثيرًا فماذا عن كتابته وتدوين أفكاره، تُخبرني أنه يرسم فقط على حدِّ علمهما، لا فيس بوك.. لا كتابات في موقع الجامعة، أنا نفسي لا أذكر شيئًا مميزًا قاله لي عن كتاباته، قراءات وحسب.

آخر شيء.. ماذا عن الأماكن الأربعة؟.. إبقوريا ومزدكيا وبومبي وفرويديا؟ ظنت الأم أنني أمزح! هي لم تعرف أصلًا أن أسماء كهذه كتبها ابنها على مكتبه ولو عرفت لما اهتمَّت بسؤاله! أنهيتُ المكالمة شاكرًا، وبحثتُ فورًا

في النت عن الأماكن الأربعة، لم أجد شيئًا عن إبقوريا ومزدكيا وفرويديا، لكني وجدتُ آلاف النتائج عن (إبيقور) و(مزدك) و(فرويد)!! الأول فيلسوف غابر والثاني مؤسس ديانة مندثرة والثالث عالم نفسي بالغ الشهرة!! محمود اشتقَّ من أسماء هؤلاء أسماءً أخرى لمدنٍ يشعرُ أنه يعيش فيها! وماذا عن بومبي؟! بالبحث تبين لي أنها مدينةٌ حقيقيةٌ بالفعل كانت تشغلُ موقعًا من إيطاليا منذ قرونٍ واليوم هي مدينةٌ أثريةٌ! جميل.. كل هذا جميل، لكن... ماذا يعني كل هذا؟! عثرتُ على لغزك الأول الصعب يا كافكا.. ولا أظنه الأخير!

بحثتُ في الهاتف عن أي خيطٍ آخر، لا شيء.. هناك فقط مجلد الأغاني.. كثيرةٌ جدًّا، لكن لحظة... قائمة المفضل من الأغاني، لنرَ ذوقه في السماع.. لنرَ أي أفكار راقت له، قائمة قصيرة نوعًا:

"شباكنا ستايره حرير... شادية!"

"سألتك حبيبي... فيروز"

"طوق الياسمين... ماجدة الرومي"

"يا لالي... محمد منير"

وانتهت القائمة، ذوقه كلاسيكي انتقائي، لم أفهم الكثير.. سأستمعُ للأغاني فيما بعد وأقرر، ربما خرجتُ منها بشيء، ينبغي الآن فقط أن أقابل أصحابه و.. هاتفي يهتزُّ في جيبي، لا بد أنها دعاء.. أردُّ مشاكسًا:

- " أناتا ني نك تسابيشيدس...و هذا يعني أفتقدك باليابانية على فكرة"
- "كيميمو..عرفتُ أن هذه تعني و أنا أيضًا !"
- "معقول.. تعلمتِ شيئًا باليابانية من أجلي؟"
- "ليت الياباني كله كيميمو فقط وليس أناتا نيبك سوفالديشس!"
- " يكفينا ان اليابانية و الأسبانية لغتان موسيقيتان يا حلوتي "
- "حمدًا لله أنني إسباني!"

اسمها دعاء، خطيبتي التي لم أدع فرصة اللحاق بها من يدي، لا أملك من حطام الدنيا شيئًا... إلا الأمل في الغد! وقد تفهَّم والدها ذلك، تحاكينا حتى وصلت لمحطتي ونزلتُ من الحافلة.

- "لم تُخبرني أين كنت اليوم"

- "أبحث عن سبب صدمة أدَّت لغيبوبة صديقي الراقد في المستشفى الآن حين زارني في الحلم لعشرين يومًا"
- "....."
- "لا عليكِ.. هذا تأثير الياباني فقط!"

***

-٨-

إلى سريـري.. بـلا أحـلامٍ كافكاويـة، رأسي عـلى الوسـادة، غـارقٌ في أفـكارهِ، غـدًا أقابـل صديقـه بعـد العمـل، أعنـي بعـد لقـائي مـع دعـاء، لكـن كيـف السـبيل للقـاء كل صديـق لـه؟ هـل حيلـة العمـل السـفلي تصلـح مـع هـؤلاء؟ هـل يشـكُّون في شـخصي كـما فعـل أبـو كافـكا؟ محمـود.. هـل مـا أفعلـه الآن لـه فائـدة؟ هـل أقـرأ في السـحر أو أستشـير مَـن يفهمـون في هـذه الأمـور؟!! لا لم أكـذب الكذبـة وأُصدقهـا ولكـن... أيكـون الأمـرُ خارقًـا للعـادة بالفعـل، ومـاذا عـن الحلـم؟.. الذئـب والـدب؟ مـاذا عـن الغـراب والقـط؟... والفراشـة؟

***

أنهيـتُ عمـلي للتـو، أتصـل بالرقـم الأول في طريقـي لدعاء، يأتينـي الصـوت ملهوفًا:

- "ألو... محمود؟.. أهذا أنت؟"

أُجيب بتؤدةٍ، واثقًا في كذبتي البيضاء:

- "لا... محمود ليس هنا، أنا الدكتور عبد الملك، مساعد الأخصائي النفسي الذي يُعالج محمود الآن، حضرتك الأستاذ أحمد جميل صديقه المقرب؟"

- "أنا هو.. هل محمود بخير؟.. هل من جديدٍ في حالته؟"

- "بخير ولله الحمد.. أفاق من الغيبوبة و.."

- "حقًّا؟!... الحمد لله.. إذن يُمكنني رؤيته و..."

- "للأسف يا أستاذ أحمد.. لم تستقر حالته بعد.. لن تستطيعَ رؤيتَه قبل فترة نقاهة مناسبة، نحن الآن نُحاول تهيئته ليواجه الواقع الذي غاب عنه طويلًا، نريد سبْر أغواره وإدراك معاناته، أنا مُكلف بمقابلة معارفه المقربين لفهم نفسية كافكا عبر آرائهم، فهل يمكنني مقابلتك اليوم؟"

- "فهمت ولكن.. اليوم؟ هناك مشاغل عديدة و.."

- "لن تستطيع مقابلتي إذن..."

- "سأكلمك إذا استطعت، أنت تعرف ضغط العمل"

***

صديقُ الطفولة لديه مشاغل، لا بأس.. لنُجرب صديق الجامعة.. مُهند حمدي

- "محمود؟... محمود معي؟"

مررت بنفس اللهفة.. المفاجأة والدهشة، التعريف المزعوم بنفسي:

- "تريد مقابلتي للكلام حول كافكا؟"

- "أرجو هذا.. وسعيدٌ أنك تُناديه بكافكا مثلي"

- "عرفته سنين الجامعة كلها حتى الآن، لكني للأسف لن أستطيع مقابلتك اليوم.. لديَّ عملي مع والدي ولا أستطيع تركه"

- "ولكن.."

- "آسف... صدِّقني هذا ليس بإرادتي"

- "على الأقل هل تُعطيني موعدًا.. الأمر كله في صالح كافكا ليشفى بأسرع ما يُمكن"

- "إذن سأقابلك غدًا إن شاء الله... انتظر مني مكالمة"

ومرَّ يومٌ.. ويومان، اتصل الثاني ليؤجل الموعد، ولم يتصل الأول حتى الآن! كنتُ في الحافلة عائدًا للبيت، أراقب المناظر عبر النافذة وأتفكر، صديقاه المقربان

مشـغولان، الـكلُّ لديـه عملـه وحياتـه، أم أن عليهـما أن يفرغـا مـن أجلـه؟.. كـما أفرغـت أنـا نفـسي لبحثـي! نسـيتُ أننـي في زمـنٍ ينشـغل الـكل عـن الـكل، وعـبر سـماعات الحافلـة الرنانـة، تـرددت أغنيـةٌ شـعبيةٌ شـهيرةٌ وقتهـا..

- "مفيش صاحب بيتصاحب ... مفيش راجل بقى راجل"

***

- "بالحق... ما مسلسل الأنمي المفضل لديك؟!"

سـألتُ كافـكا في يومنـا الأخـير بالتربيـة العسـكرية، أجابنـي عـلى الفور

- "خيالي أم واقعي؟!"

- "وهـل هنـاك فـارقٌ بالنسـبة لـك.. ألا يبقـى العمـلُ جيـدًا فـي النهايـة؟! ألاحـظ أنـك تقـرأ فـي كل الأنـواع مـن الأسـاس"

- "قلتها بنفسـك... أنـواع، سـيظل التصنيـفُ قائمًـا.. هنـاك الخيـالُ والواقـعُ مهمـا تماهينـا معهمـا!"

- "فليكن !... أخبرني عن الواقعي"

- " romeos blue skies"

- "لا أعرفه... يبدو لي روميو هذا يطير في سمائه الزرقاء بحرملة كأي بطل خارق!"
- "ليس تمامًا!... على كلٍّ حال... رغم أنه واقعي، فهو خيالي جدًّا... خيالي حتى النخاع يا صديقي!"
- "وبعدها معك يا هذا!... كُفَّ عن الطلاسم لو سمحت!"
- "ليست طلاسم.. شاهده وستعرف!"
- "أخبرني إذن عنه... عمَّا يحكي؟"
- "لا بد أن تراه بنفسك.. على كل حال هو يحكي عن موضوعٍ بسيطٍ جدًّا... عن الصداقة!"

***

وصلتُ وجهتي غارقًا في ذكرياتي الكافكاوية، أدخل الكافيه الفاخر لأجدها تنتظرني ملولةً في مكاننا المفضل، دعاء.. تُومض هناك بشدةٍ بين ظلمات العالم حولها!

- "تأخرتُ ثانية.. أعرف!"
- "أتعرف شيئًا آخر... أنت مشغولٌ عني كثيرًا هذه الأيام.. تنشغلُ عن خطيبتك؟.. ماذا جرى في هذه الدنيا؟!"

لم أنشغل عنك كثيرًا يا دعاء، كما لم أنشغل عن محمود كافكا!

- "جرى كل خير.. وها هو الدليل، هدية فريدة إليكِ.. بل أربع هدايا!"

***

قابلت مهند حمدي أخيرًا، قصيرٌ مكيرٌ كما يقول المثل، معقوفُ الأنف قليلًا، ذو لحيةٍ أنيقةٍ مشذبةٍ، جلس قبالتي في المقهى الذي اخترناه لموقعه المناسب لكلينا، يعتذر لي مجددًا بحرارةٍ:

- "صدِّقني.. ليس بإرادتي"
- "لا بأس... المهم أنك ستُفيدني بشأن صديقك"
- "في الواقع.. أخشى ألا أفعل!"
- "ألا تفعل... كيف؟!.. ولِمَ؟!!"
- "لأن محمود لم يكن صديقي بالمعنى المفهوم!"
- "!!"
- "لا تستغرب... محمود لم يكن له يومًا ما ندعوه بالصديق أو الرفيق! وأنا لم أكن استثناءً يؤكد القاعدة!!"

***

-٩-

يُواصل مهند تصريحاته العجيبة عن صديقه.. أو ما ظننته صديقه:

- "كما أقول لك.. كافكا منفردٌ بنفسه منذ عرفته.. لو وُجد من يُمكننا وصفه بالذئب المتوحد.. فهو كافكا و..."

- "لحظة!... قلتَ الذئب المتوحد؟... ولماذا الذئب بالذات؟!"

- "وما المشكلة؟!... هذا محضُ تشبيه!... قرأته ذات مرة!"

أضحك بشدةٍ.. وكذا يفعل مهند، أخبرته بفكري ومقصدي.. ردَّ مُتفهمًا:

- "هكذا.. تعني رسمته السريالية؟! ليت الأمر اقتصر على هذا فقط، لم يُخبرني يومًا عن مغزى حيواناته

الأربعة، يزعم أن هذا محض تدريبٍ لمهارته في الرسم، لم أصدقه.. لكني لم أخضع لفضولي في أمرٍ كهذا... فليفعل ما يشاء، يرسم فراشاتٍ عجيبةً.. يكتبُ جملًا واقتباساتٍ مما قرأ.. يحملُ زجاجة عطر ثابتةً في جيبه دومًا.. يُحملق في المصحف كل ربع ساعة.. يرتدي خاتمًا ويرميه بنفسه.. يمشي..."

- "لحظة لحظة لحظة... مَن قال إنك لن تفيدني؟!.. ولكن لنحكِ عن كل شيء على حدةٍ من فضلك يا باشمهندس!"

وأخرجتُ مفكرتي، سأدوِّن كل ما يبدو مهمًّا، لن أبالغَ وأسجل كلمات مهند بالهاتف المخبأ في معطفي! ليس لهذه الدرجة!

***

وتركتُ الدفة لمهند.. يحكي كما يُحب، يسترجعُ الخواطر ولعل تداعي المعاني يُحدث أثره، هكذا يفعل الأطباءُ كما أحسب.. وأنا الآن طبيبٌ كما أزعم، تغيب عيناه في الماضي.. ناظرًا لأبعاد أخرى من خلالي، يحكي لي ما آمل أن يُساعدني، سألته أن يبدأ بالسنة الأولى التي تعرَّف فيها كافكا.

- "معرفتي به واحدة في كل السنين، كان وللحق نعم الزميل، المحاضرات والسكاشن وخلافه، كنا نتبادل مسؤولية التحصيل فيما بيننا، وعَلاقتنا قائمةٌ على العمل أولًا.. مع الوفاء لهذه النية، لم يتأخر عني يومًا في شرح جزئيةٍ ما، وعاملته بالمثل فيما لا يضرنا، لم نكن نذاكر معًا... بل هو الشرح السريع في الجامعة وكفى"

- "ألم تخرجا عن هذا النطاق للحديث حول شيء آخر؟ خطط المستقبل.. مشكلات كل منكما.. حب الجامعة.. ماذا عن حب الجامعة؟"

- "فعلنا بالطبع، كما يفعل الموظفون لتلطيف الجوِّ بين ساعات العمل! مشكلات البلد، السياسة وبعض الآراء فيها، صعوبة إيجاد وظيفة بعد التخرج، بالنسبة لحُبِّ الجامعة، فلا أحسب أن لكافكا واحدًا!"

- "حقًّا؟.. كلٌّ منا لديه في الأغلب"

- "لم يُحدثني عنه إن وُجد، يميل كافكا للتدين بشدةٍ، حتى إنني اندهشت لتسميته نفسه بكافكا، أليس كافكا هو اليهودي الشهير في الأدب؟ ورفضتُ بدايةً أن أناديه هكذا، لم أقتنع إلا حين ناداني باسم شخصيتي المفضلة في الفيزياء، وجدتني فخورًا

بهـذا.. رغـم أن الآخـر كان يهوديًّـا كذلـك!.. آينشـتاين! عَلاقـة محمـود الوحيـدة بفتيـات الجامعـة هـي سـخريته مـن مظهرهـن"

- "المظهر؟.. تعني الملابس والماكياج مثلًا؟"

يضحك بشدةٍ:

- "الملابـس بالـذات، كانـت عيوننـا تلقـى مناظرهـن مهمـا فعلنـا، يندهـش محمـود كثيـرًا ويُخبرني أن والدتـه قابلته يومًـا أمـام الكليـة وعلَّقـت علـى ملابـس إحـدى الفتيـات بأنهـا ليسـت لمهندسـةٍ وإنمـا لمـن تعمـل فـي ملهـى ليلـي! كافـكا نفسـه كان يُخبرنـي أنـه تمنـى لـو دخـل قسـم الحاسـبات ليختـرع نظـارة يرتديهـا الرجـل منـا فتبـدل لعينيـه ملابـس بنـات الكليـة المعتـادة لأخـرى عفيفـةٍ! أخبرنـي كثيـرًا عـن رأيـه فـي ملابـس هـذه الأيـام، الطبيعـي المعتـاد منهـا صـار خليعًـا... فمـاذا عـن التـي تقصـدُ الخلاعـة أصـلًا؟!"

- "مشـكلةٌ ذكوريـةٌ أزليـةٌ، لكـن.. كيـف تـرى تدهـوره فـي العـام الثالـث؟ لمـاذا انفـرط عِقـد تركيـزه ليرسـبَ فـي مادتيـن كمـا حـدث؟"

- "أصدقـك القـول.. لا أدري، فجـأةً صـارت المذاكـرة تُجافيـه، هـذا مـا أثـار دهشـتي بشـدةٍ وقتهـا، سـألته

أكثر من مرةٍ عما تغيَّر، لكن الإجابة لم تكن عنده! لا تسليم للفروض... لا شراء للملازم، والأدهى نظراته الساهمة دومًا في المحاضرات، أين محمود الذي كان يحضر المحاضرة مرتين وثلاث؟ خاصة في العام الثاني حين نقص عن الامتياز درجاتٍ معدودةً، كان يستغل إعادة المحاضرة للمجموعة الأخرى ليستمعَ مراتٍ ومراتٍ، يُضحي بوقته ليفهم أكثر، أما في ذاك العام المظلم، كان يحضرُ كأنما ترك عقله في مكانٍ آخر، لا يخرجُ بكلمةٍ واحدةٍ، لا أظن أن كافكا أخبر أهله بحقيقة درجاته، لقد نجا بصعوبةٍ من إعادة السنة بكاملها، مع أنها سنة التخصص التي يُذاكر فيها الطلبة أكثر من كل السنين الأخرى".

هنا طرأ لي خاطرٌ، سألت مهند مباشرةً:

- "هل اختار كافكا تخصصه برغبته أم ضغط عليه والداه؟"
- "لا أعرفُ شيئًا بشأن الوالدين، غير أن محمود كان يرغب في (ميكانيكا باور) كما أخبرني مرةً، وجدته في النهاية اختار ميكانيكا إنتاج مثلي، سألته عن السبب فهزَّ رأسه بلا اكتراثٍ، النتيجة واحدة والوظيفة عزيزة في كل الأحوال"
- "ماذا عن العام الرابع إذن؟"

- "تغير جذري بزاوية ١٨٠ درجة، كافكا الذي لم يكن يستمع في المحاضرة... صار لا يستمع إلا إليها، روبوت إنساني كما وصفه زميلنا في قسم الميكاترونيك حيث يدرسون الروبوتات! انعزاله عن العالم زاد واستفحل، كلامه معي لم يتعد الهندسة في شيء، تعليقاته الساخرة حول الفتيات اختفت، كأنما هزَّته الهزيمة المُنكرة في العام الماضي، فقرَّر هزم نفسه بكلِّ وسيلةٍ، وقد فعل وأدهشنا جميعًا، حطَّم رقمًا قياسيًّا لم يحدث في تاريخ الهندسة!"
- "إلى أيِّ مدى بلغت غرابة أطواره في تلك الفترة؟"
- "غرابة الأطوار؟.. لقد كان الغرابة ذاتها تمشي على قدميْن، كان يبيتُ أحيانًا في الكلية مُنكبًّا فوق كتبه ومراجعه! ساهرًا في كتابة تقرير أو قراءة مرجعٍ، يسألُ الأساتذة في أعقد التفاصيل، يحومُ حول المعامل طيلة الوقت، لا يتركُ المصحفَ من يده، يقول إنه يسعى لحفظه في أقل مدةٍ، الدراسة والمصحف والصلاة... لا شيء آخر، تلهج الكلية بمظاهرات اتحاد الطلبة، وكافكا لا يُحرك ساكنًا، يموتُ صديقنا في حادثٍ مؤسفٍ، يستمعُ كافكا

للخبـر صامتًـا ويعـودُ إلـى المرجـعِ فـي يـده بـلا كلمـةٍ واحـدةٍ!"

- "تعني أنه كان في طريقه للغيبوبة؟"

- "ربمـا.. محمـود لـم يكـن علـى مـا يُـرام مـن وجهـة نظـري... بلـغ مـداه فـي الانعـزال عـن العالـم، لكـن بقيـة النـاس وحتـى والديـه عـزوا الأمـر لصدمـة الدراسـة التـي نالـت منـه"

***

هــل قلنــا كل شيء؟ لا يبــدو أن لصديــق الجامعــة مــا يُضيفــه ولكــن..

- "ولكن ماذا عن الخاتم.. قلتَ إنه رماه بنفسه؟"

- "ارتـدى خاتمًـا فضيًّـا جميـلًا فـي سـنته الأخيـرة، سـألته عنــه فــردَّ بتلقائيــة إنــه سُــنة، كمــا يزعــم بعضهــم أن الفضـة تمتـصُّ الطاقـة السـلبية مـن الإنسـان! ومحمـود أفعمتـه الطاقـة السـلبية بعـد فاجعتـه!... هـذا كلامـه علـى فكـرة وليـس كلامـي!"

- "ورغم هذا رماه بنفسه؟!"

- "أكثر من مرةٍ... يتركه على البنش في المدرج كأنه لا يهتم به ويعود ليأخذه من جديدٍ"

- "كأنه يئس من موضوع امتصاص الطاقة!"

- "ربما.. وفي مرةٍ ألقاه بعيدًا على الأرض حانقًا، فالتقطته أنا وتأملته، كانت ثمة كتابة على سطحه الداخلي.. كلمة نُقشت بخطٍّ ركيكٍ كمن يكتب اسم خطيبته، سألته عنها بلا اكتراثٍ متوقعًا إجابةً غريبةً، فقال إن هذا اسم مدينة تركية! فقد جاءه الخاتم من صديقٍ تركي عرفه من البريد الإلكتروني".

- "مدينة تركية؟!.. أي مدينة؟!"

- "لم يترك لي كافكا الوقت لأعرفها.. فقد اختطف مني الخاتم وأعاده لأصبعه ثانية!"

خاتم؟!.. ومدينة تركية؟!... يُمكنني أن أجد الخاتم عند والديه و.. باغتني مُهند بإفساد فكرتي:

- "إلى أن أضاعه كافكا بلا قصدٍ"

- "أضاعه... كيف؟"

- "كان ينزعُ الخاتم عند الوضوء، كان مُضطرًا لذلك حتى يُمرر الماء عند موضعه في الأصبع كما يفعل كل مرةٍ، لكن أحد الطلبة أوقعه دون قصدٍ بكوعه

حيث وضعه على الصنبور، سقط وقتها في البالوعة وحاول محمود الإمساك به، إلا أن الأوان قد فات".

- "هل تأثر محمود سلبًا بضياعه؟.. ما ردُّ فعله حين فقده؟"

- "لا شيء... تسمَّر قليلًا يرمقُ البالوعة، ثم عاد لوضوئه كأن شيئًا لم يكن".

لغزٌ جديدٌ تُصر على إضافته لي يا محمود... غير أن كل هذا.. يعني شيئًا ما؟ هل العمل السفلي في ذاك الخاتم إذن؟ كنت ترفضه حين تعودُ لرشدك وتقبله مُرغمًا بسيطرة السحر عليك؟!!... السِّحر التركي طبعًا، وهل السحر يقوى بوضع الفُل... الفُل؟!

- "ألم يُخبرك بشيء حول زجاجة العطر في جيبه؟"

- "لا... يُحبها كما يُحب الرسم! كان عِطرَه المفضَّل... لا يُغيره أبدًا"

- "فُل.. أليس كذلك؟!"

تنهَّد مُهند، مُتعبًا من الكلام، مُتذكرًا صديقه بحسرةٍ.. حسرةٍ ممزوجةٍ بالعجب على الصديق الراحل:

- "ليس الفل.. بل هو الياسمين"

ياسمين.. فُل، لا مشكلة.. فكلاهما واحدٌ بالتقريب.. أم..؟

***

-١٠-

حكَّ أحمد جميل شعرَه الكثيفَ، وقال:

- "محمود كافكا... كنتُ أعزَّ صديقٍ له!"

- "كنت؟!"

رددت عليه مُستنكرًا، محمود لم يمت بعد!، لِمَ يتكلم بصيغة كان وكنت؟ وما الثقة التي جعلته يقول فخورًا إنه صديق كافكا الأعز؟ قابلته بعد أسبوعين من المحاولة الأولى للقائه! وجهُه مُريحٌ نوعًا، شبيهٌ بالممثل أحمد حلمي لو دققنا النظر، عويناته رفيعة أنيقة بلا إطار، يردُّ سؤالي بأريحيةٍ:

- "أقول كان لأنه لم يعد كذلك، محمود هجرني.. بالأحرى هجر الدنيا كلها، أتكلم عن المعارف والأصحاب بالذات، لم يعد باقيًا على أحدٍ، لا تحسبني أبالغ حين قلتُ إنني كنتُ أعز أصدقائه،

هـو أخبرنـي بهـذا أكثـر مـن مـرةٍ، كان أوفـى مـن عرفـتُ فـي حياتـي، حتـى جـاء اليـوم الـذي تظاهـر فيـه أنـه لا يعرفنـي مــن الأســاس!"

- "وكيف كان ردك حين يُخبرك أنك أعز أصحابه؟"

- "بصراحةٍ.. كنتُ أقول له... أعرفُ هذا!"

ضحكـتُ مـن صراحتـه المُفرطـة، هـو أيضًـا ضحـك حتـى دمعـت عينـاه!

- "لا تحسـبني نرجسـيًّا... لكـن هـذه حقيقـة، كافـكا كان يُحبنـي أكثـر ممـا أحبـه"

- "ولماذا تغير هكذا وهجرك كما تقول؟"

- "لأننـا انفصلنـا فـي الثانويـة العامـة، لـم تجمعنـا سـوى الـدروس الخصوصيـة بيـن الحيـن والآخـر، كنـتُ أعـرفُ أن هـذا سـيحصل"

- "كنتَ تعرف!.. ولكن لماذا؟!"

- "هــي طبيعــة الحــال.. جمعتنــا الظــروفُ ثــم فرَّقتنــا.. هكـذا الدنيـا"

أطرقـتُ لوهلـةٍ مُفكـرًا في كلماتـه، فعـلًا جمعتنـي الظروف أيضًـا بمحمـود، لكنهـا لم تُفرقنـا.. محمـود مـن افـترق عنـي.. أنـا الآخـر، أم أن..؟

- "حدِّثني عن صديقك.. قبل أن تفرقكم الظروف.. وحتى أنكرك بشدةٍ"

***

كافكا.. ذاك الطفل الغريب، أتذكره في طفولته كأنها البارحة، يُحب العزلة كثيرًا، وتُحبه العزلة بنفس القدر، لم يشاركنا في (عسكر وحرامية) أو حتى (فتَّحي يا وردة.. قفّلي يا وردة) حين كنا في روضة الأطفال، وبعدما اشتد العودُ وبلغنا الصبا، لم يُحب مركز المدافع الذي يُجيده نوعًا في كرة القدم، اغتنى عن كل هذا بألعابه ودُماه، وقصص علاء الدين وسلاحف النينجا التي تُوزع مع الكتب الخارجية، تسمَّر كثيرًا أمام سبيس تون وغيرها مما يُحرك الخيال، انتقل من (صرخة الرعب) لما وراء الطبيعة، انتهاءً بالكتب الضخمة التي لم أكن أجاريه فيها، هاري بوتر ودان براون وما شابه، فكان اسم كافكا الذي عرفناه به.

محمود كان إنسانًا خياليًا جدًّا لو صحَّ التعبير، يبدأ من الخيال وإليه ينتهي، يُحبه وينأى عما سواه، أتعرف ماذا أظنه كان يفعل في غيبوبته؟ يحلمُ بسابق ولاحق أو رفعت إسماعيل وكل أبطاله في الخيال، ماذا تنتظرُ من شخصٍ لا يُذاكر قصص اللغة العربية والإنجليزية، لأنه

يحفظها من كثرة القراءة؟ عشق ألعاب الأتاري قبل الحاسب الآلي، أليس جهاز التحكم في يده هو واسطته لعالم الخيال هناك؟ كأنما وُلد لعالمٍ آخر غير عالمنا، عاش محمود بيننا كأنه لم يعش، كنتُ أشاركه كثيرًا في عالمه، بقدر حبي للخيال، القدر الطبيعي لدى أيِّ إنسان.

لأنني كنتُ بخلافه، أعيشُ الحياة كما ينبغي، أحترفُ الكُرة بشدةٍ، يُحبني الآخرون ويُحبون صداقتي، اهتممت بعالمي كما اهتم محمود بعالمه الافتراضي، احتلت حوائط غرفتي صور (روبرتو كارلوس) و(رود فان نيستلوري)، بينما خلت حوائط غرفته من أي شيء، فعقله مزدحمٌ بشخصياته وأبطاله.. يُحدثهم ويُحدثونه، تبادلتُ معه الروايات وشرائط الأتاري، بالعكس.. كنتُ أقرأ الروايات التي يشتريها أولًا بأول وأعيدها له! أما هو فلم يستغنِ عن امتلاك مفاتيح أبواب عالمه وليس محض استعارتها وإعادتها، متى انتبه محمود للدنيا المحيطة به، للناس والمعاملات والأمور الأخرى؟.. لا أحسبه فعل سوى في مراتٍ معدودةٍ.

أولها كانت مرحلةً محتومةً اسمها (هند)، زميلتنا في المرحلة الابتدائية، أحبها كثيرًا بضفيرتها السوداء ووجهها القسيم، حب الطفولة كما تعرف، هل فعل شيئًا ما بصدد ذاك الحب؟ مثل جوابٍ غرامي ساذج الكلمات حار

العواطف بخط طفولي من قلبٍ مرفرفٍ بريء؟ لم يحدث للأسف، لم تكن لديه الشجاعة، لم تجمعه الكلماتُ بهند سوى حين تطوَّع ليشتري لزملائه في الفصل ما يُريدونه من كانتين المدرسة، فقصد هند كأول من قصد، هل عرفت هند ما يعتمل في قلبه الغضِّ؟ ربما لم يحدث لأن محمود لم يكن الوحيد الذي عشقها، إلى أن تركت المدرسة بعد إنهاء الابتدائية.

أما (سميرة) حُبه الثاني فعرفتْ بالقطع، عرفها في سنته الأخيرة من المرحلة الإعدادية فيما كانت هي في الرابعة الابتدائية! تحجَّج محمود أن الحب لا يأبه للسن أو للشكل! بيد أن الشكل ظل معه كما هو، الضفيرة الآسرة والملامح الخلابة، أحب محمود الجمال كما أحبَّ الخيال، ذكر لي آخر ما ذكر أبياتًا تُنسبُ للإمام علي كرم الله وجهه... تُلخص الكثير من نظرته للأمور، أذكرها لسهولتها ولطرافتها، فيمكن قراءتها أفقيًا أو رأسيًا:

أَخُونُ صَدِيقِي وَهَذَا مُحَالْ
صَدِيقِي أُحِبُّهُ، كَلَامٌ يُقَال
وَهَذَا كَلَامٌ بَلِيغُ الْجَمَالْ
مُحَالٌ يُقَالُ الْجَمَالُ خَيَالْ

***

- "لكنه خانك كما يُوحي كلامُك.. فكيف يقول أخون صديقي وهذا مُحال؟"

سألتُ أحمد مُقاطعًا، حقًّا لماذا انقطع عنه.. عن صديقه الأعزِّ؟ يُجيبني مُنزعجًا:

- "لم يحدث.. لم يخنِّي محمود، متى قلتُ هذا؟!"
- "ألم تقل إنه هجرك... وهجر كل صحبه؟!"
- "بلى ولكن.. لم تكن خيانةً! كان هُجرانًا مشروعًا.. انشغال بالدنيا وأمورها... فهمتني يا دكتور؟"
- "لم يخنك كافكا... فهمت هذا، أكملْ بعد إذنك.. ماذا تم مع سميرة ذات الضفيرة هي الأخرى؟ كيف عرفها كافكا أصلًا وهي أصغر منه هكذا؟"

***

لم يحدث الكثير، تكلم محمود مع (سميرة) مراتٍ عديدةً إذ رافقته في حافلة المدرسة، جرى الكثير من المزاح واللعب كما تسمح المواقف، (أتوبيس كومبليت) وغيرها من التسالي، يحكي لي عنها كأنها أميرته المتوَّجة.. مُتربعة على عرش قلبه، بالفعل لم يكن يذكرها في حديثه سوى بأميرتي.

لا شك أنه جعل من حبه مرتعًا خصبًا لكل الخيالات الممكنة، قصص الحب الذاتية البديعة، العفيفة بالقطع؛ فكافكا كان يُنزِّه حبه كأسمى ما يتخيل المرء، كنا وقتها في بداية البلوغ والمشاعر الحائرة المتأججةِ، وكنتُ أذكرها في سياقِ حديثي عن هذه الأمور، كأن يعلن محمود حانقًا:

- "اليوم استيقظت على حمَّام باردٍ.. تبًّا للأحلام"

- "لماذا يا شقي؟.. هل حلمت بسميرة ليلًا؟.. بوهاهاهاهاها"

فيزغر لي ويرمقني بأقسى علامات الاحتقار!

- "اخرس!"

ففي خياله، أنقذ أميرة عشرات المرات من ميتاتٍ محققةٍ، فدى عنها السهام في غابة شيروود، تلقى طعنة السيف من الأوركس بدلًا منها، حملها طائرًا في سماء متروبولس أو جوثام سيتي، محمود قدَّس حبه بشدةٍ، الحب الأفلاطوني إذ يلتحم مع الرجولة الغضَّة، لكن كل هذا انتهى، برحيل سميرة هي الأخرى بعد ترك المدرسة والانتقال للثانوية العامة، افترق عنها كما افترق عني، سميرة كانت تُكلم الكثير من الأولاد كذلك في سنِّها

الصغيرة.. العاشقون لجمالها مثله، ربما لم يجد محمود لنفسِه مكانًا بينهم وحسب أنها لن تختارَه.

انتقلنا للثانوية، ومحمود يكتشفُ هذه الحقيقة ببطءٍ، عليه أن يُذاكر، عليه أن يُرضي ربه كي يوفقه، لم يكن محمود من المُصلين وإن صلى فتراتٍ متقطعةً في طفولته، فصلّى في الثانوية وذاكر، وفعل ما بوسعه حتى نال ما استحقه من خير بجدارةٍ، كنتُ أظن أن مكانه الصحيح في كلية الإعلام أو الآداب لحبه للأدب والقراءة والخيال، لكنه مع المجموع الكبير الذي يريمه أي طالب، التحق بكلية الهندسة مُخيرًا أو مُجبرًا، وهناك انتهت صداقتنا تمامًا، فلا مدرسة تجمعنا ولا حتى دروس خصوصية وما من شيء آخر، كانت القطيعةُ الأخيرة خاصة بعد ذلك الموقف البسيط و...

***

- "موقف؟!.. أهناك موقفٌ مُعين أدى إلى القطيعة؟!"
- "ماذا بك ؟.. أنت تُربكني يا دكتور!"
- "آسف... أنا فقط أقتنصُ اللحظات المؤثرة في حياته، قد يقودنا هذا لشيء، بالمناسبة.. أتعرفُ شيئًا عن رسمة محمود؟!"

- "أي رسمة؟... لا أعرف شيئًا عن محمود في الجامعة"
- "سأخبرك ما فيها.. تابع الآن من فضلك... لن أقاطعك ثانيةً"

***

كان موقفًا بسيطًا جدًّا كما أحسب... هذه طبيعة الأمور، اتفقنا أن نتقابل في مكانٍ ما، وانشغلت في ذلك اليوم، لم أتصل به حتى لا أغضبه بعدم تمكني من لقائه، فاتصل هو بي فضغطتُ زر أنني مشغول، كنتُ مشغولًا بالفعل، وحين فرغتُ من انشغالي بعد يومين كلَّمته في الهاتف لكنه كان باردًا جدًّا في حديثه:

- "لا بأس يا أحمد.. حصل خير، فلنتقابل يومًا ما! "

هززتُ رأسي شاكرًا لتفهمه، بعدها حاولتُ الاتصال به، كان يُرد بكلماتٍ مقتضبةٍ سريعةٍ، يقول إنه مشغولٌ هو الآخر لهذا لا يتصل بي، ومرَّت الأيامُ وانشغل كلانا أكثر ولم نعد نلتقي أو نتحادث في الهاتف، حتى جاء اليوم الذي كلَّمته فيه فلم يعرفني! تخيَّل هذا معي.. المفترضُ أنه يعرفني من صوتي فقط... سألني مَن أنا! وحين أخبرته مُندهشًا أنني صديق عمره، فسَّر ما حدث بأنه ضغط

الكليـة الرهيـب عليـه بعـد أن انتكـس بشـدةٍ في العـام الماضي، لم أصـدِّق نفـسي وقتهـا، يـا لمـا تفعلـه بنـا الأيـام والسـنين!

حُـبُّ الجامعـة؟! لا أعـرفُ عنـه شـيئًا، لكـن يبـدو أن محمـود أقحـم نفسَـه في حـبٍّ مُستحيلٍ، كان هـذا في السـنة الأولى بعـد الثانويـة، كنـتُ أُصـادقُ منـذ طفولتـي العديـدَ مـن النصـارى، خاصـة في ملاعـب الكـرة في المدرسـة والمنطقـة، ولمَّـا كان محمـود يعـرفُ هـذا عنـي، اتصـل بي يومًـا- قبـل أن يُنكـر معرفتـه بي- ليسـألني آخـر مـا أتوقعـه منـه:

- "أحمـد.. هـل صليـبُ المسـيحيين علـى اليـد اليمنـى أم اليسـرى؟!!"

ذهلتُ من سؤاله، يتصل بي بعد كل تلك الشهور لهذا؟!

- "اليمنى يا حودا... لكن لماذا تسأل؟!!"

- "للأولاد والبنات يا أحمد؟!!"

- "للاثنين يا عم كافكا... إيه الحكاية يا نمس؟!"

لكـن محمـود لم يُفصـح بأكـثر مـن هـذا، لم يُخـبرني أكـثر عـن سرِّ استفسـاره لكننـي خمَّنـت بالطبـع، محمـود المتديـن يقـع في حـبٍّ كهـذا؟! يـا لهـذه الدنيـا! بعدهـا لم يُكلمنـي محمـود لشـهورٍ أخـرى! انشـغل كلٌّ منـا بدنيـاه مجـددًا.

تسألني عن حيوانه المفضل؟ القط بالطبع، محمود يُحب القطط بشدةٍ ويراها أجمل ما خلق الله بعد الأنثى، ليتك رأيته حين مات القط الذي يُطعمه بجوار المدرسة، وكأنما فارقه صديقٌ عزيزٌ، دموعٌ وحزنٌ وكآبةٌ! الغراب؟.. لا أعرفُ شيئًا عنه، ماذا؟!... الذئب والدب؟! قُل كلامًا معقولًا! كافكا كان مهندسًا وليس دارسًا لعلم الحيوان، مدينته المفضلة بتركيا؟ لم يأتِ بسيرة تركيا منذ عرفته ولا حتى في لعبة عواصم البلاد، خاتم فضي؟... لم يحدث هذا، لم ألمح لمعة الفضة في يده أبدًا.

متى رأيته آخر مرةٍ؟! بالصدفة في الشارع.. لمحته فقط، لم أحرج نفسي بالسلام عليه ليُنكرني مُجددًا، كان مُتغيرًا بكثيرٍ عما عرفته، طالت لحيته وبان عليه التقى والورع، لو كان لي أن أنصحه وقتها، لأمرته أن يعودَ لصوابه، أخشى عليه أن يتخذ الجلباب والطاقية في المرة القادمة!

***

- "بالمناسبة.. لماذا لحيتك طويلة يا دكتور؟"

لحيتي.. طالت قليلًا، نسيتُ حلاقتها اليوم، لكنني وجدتُ نفسي أردُّ سؤال أحمد جميل هكذا:

- "لا شيء.. أنا فقط أقلد جيفارا!"

***

-١١-

- "شكرًا أستاذ أحمد.. أظن أنني سأجلسُ بالمقهى قليلًا.. يُمكنك الانصراف"

وقفتُ مُصافحًا من كان أعز أصدقائه، ذهب وتركني... لحيرتي، والأكثر من الحيرة.. الفهم.. البحث.. الربط، الشكوك تتكاثرُ في صدري.. تُمنيني بالنتائج وتحجم عنها في ذات اللحظة، كافكا... هل بدأ شيء من ضبابك ينقشعُ؟ لا؟.. فما بالُ هذا الأمل يتطرق إليَّ... يتزايدُ بين عينيَّ، حملقتُ في مفكرتي... كتبتُ الكثيرَ من الفقراتِ في الصفحة الصغيرة، ربطتُ بين الكلمات حتى تكوَّنت شبكةٌ معقدةٌ أمامي، لكن الشبكة في ذهني كانت أكثر تعقيدًا بكثير، شربت جرعة الشاي الأخيرة وناديت النادل للحساب، دفعت المال ومشيتُ مُغادرًا المقهى، شاردًا... سادرًا في أفكاري.

هـل عرفتُـك بالقـدر الـكافي يـا كافـكا؟! عرفـتُ عنـك الكثـيرَ ولكـن.. حُبـك، أظنـه سـيُقدم لي الأكـثر، لكـن أيـن حبُّـك؟.. أيـن عسـاني أجـده؟ وركبـت الحافلـة، أتفكـر وأتذكـر، الحافلـةُ مظلمـةٌ.. شـبه فارغـةٍ، في مقعـدي فـردتُ المُفكـرة.. أنظـرُ في الظـلام، أخرجـتُ هاتـف كافـكا.. اخـترتُ أغـاني قائمـة المُفضلـة، اسـتمعتُ عـبر سـماعة الأذن مُحـاولًا الانتبـاه مـع نظـري في المُفكـرة، يـأتي نـورُ الشـارع مـن حـينٍ لآخـر، يمـرُّ كشُـعاعِ بـرقٍ بطـيءٍ عـبر النافـذة، ويُتيـح لي رؤيـةً مُتقطعـةً بخيلـةً لشـبكةِ الأفـكارِ هنـاك، تـدوي كلـماتُ نـزار قبـاني في أذني بصـوتِ ماجـدة الرومـي العـذب:

- "شـكرًا لطـوق الياسـمين.. وضحكـت سـاخرة لـه.. وظننـت أنـك تعرفيـن"

تحومُ كلماتُ المُفكرة أمام عينيَّ مع كل ومضةِ نورٍ..

ضفيرة.. صليب.. لحية.. جامعة.. جميل.. قط...

الأغنيةُ التاليةُ كانت لمحمد منير:

- "أول دخولنـا الجنينـة.. عيـط الياسـمين يـا لالالـي، والسيسـبان اشـتكى والـورد قـال ده ميـن يـا لالالـي"

حمـدي.. ذئـب.. ميكانيـكا بـاور.... غـراب.. ياسـمين.. زهـرة لا تذبـل أبـدًا

وتشدو شادية بين أفكاري

- "" والنسمة تلعب بينا وتجيبنا وتودِّينا.. نصبح على فرحة وردة وننام على نور ياسمينة"

هند.. فُل.. عطر..

والأغنية الأخيرة كانت لجارة القمر فيروز.. هل ستقول هي الأخرى؟

- " ويا دنيا شتي ياسمين... عاللي تلاقوا مش عارفين.. ومن مين خايفين"

***

معقول ؟!

انتهت الأغنيةُ.. وأخرجتُ هاتفي فورًا من جيبي، أحاول اختيار الرقم في عجلةٍ.. من الأسماء.. بل من السجل.. بل من الأرقامِ الأخيرةِ، الفكرة.. كأنها ستهربُ مني إن لم أسرع، الرقم أخيرًا.. مهند حمدي، يُضيء الاسم على شاشتي ريثما يرنُّ الجرس، رُد يا مهند.. رُد أرجوك...

- "ألو.."

- "مهنـد... معـك المترجـم عبـد الملـك.. أخبرنـي مـن فضلـك، محمـود كان يُريـد اختيـار ميكانيـكا بـاور فـي البدايـة.. أليـس كذلـك؟!"

- "المترجم؟!.. ألست الدكتور عبد الملك؟!!"

ويلي.. تبًّا للعجلة، هي حقًّا من الشيطان بلا شك!

- "بلـى أنـا هـو.. رسـالتي فـي ترجمـة الحـركات والإيماءات لمدلـولاتٍ نفسـيةٍ، لهـذا يُسـمون وظيفتـي المترجـم، والآن هـلا تُجيـب سـؤالي؟"

- "فعلًا كان ينبغي هذا القسم قبل أن يُغير رأيه"

- "إذن.. هـل أجـدُ عنـدك رقـم زميـل لكـم فـي ذلـك القسـم؟ أريـد سـؤاله عـن شـيء مـا"

يُفكـر مهنـد قليـلًا، أنتظـره عـلى جمـرٍ بينـما تـتردد ضوضـاء الشـارع مـن حـولي:

- "حمـزاوي.. محمـد حمـزاوي، أظننـي املـك رقـم هاتفه.. لحظـةً واحـدةً.. هـا هـو.. اكتـب معي!"

وأمـلاني الرقـم، شـكرته وطلبـت الرقـم الآخـر بـلا انتظـارٍ، جـاءني الصـوتُ السـحري عـبر الخـط:

- "ألو.."

- "باشمهندس محمد حمزاوي؟"

- "نعم تفضَّل"

- "معك الدكتور عبد الملك شريف... أنا أُشرف على حالة زميلك محمود كافكا.. أعني محمود مصطفى"

- "كافكا.. أتذكره بالطبع، ولكن ماذا أصابه بالضبط؟... سمعنا الكثير من الإشاعات عنه"

أشرح في صبرٍ نافدٍ، أختلقُ قصةً جديدةً مقنعةً باقتضابٍ، مقنعةً بالقدر الذي يُمهد لسؤالي القادم و... أخيرًا:

- "سأسألك سؤالًا واحدًا يا باشمهندس، استشففته من جلسات علاج كافكا، تجبيني فقط بنعم أو بلا وبعدها نتكلم في الخطوة التالية"

- "تفضل!"

سحبتُ نفَسًا وأخرجته بسرعةٍ، استعددتُ للسؤال الذي سيعني أنني قد وصلت لشيء ما أم أنني أحمق بالكلية:

- "هل لديك في الدفعة زميلة فاتنة ذات ضفيرةٍ تُدعى ياسمين؟"

يصمــتُ حمــزاوي قليــلًا، أكاد أســمعُ دقــات قلبــي.. محطتــي فاتــت.. لا يهــم:

- "كافكا أخبرك بهذا؟!"
- "أخبرني أنت فقط... هل هذا صحيح؟"
- "بالفعل.. ياسمين عماد.. أجمل فتيات الدفعة!!!"

***

-١٢-

فتاتـك يـا كافـكا.. وجدتهـا! وردتـك التـي لا تذبـل إذ حملـت اسـم أجمـل الـورود بالفعـل! فاتنتـك النابهـة التـي عشـقتها وعشـقت كل مـا يمـت لاسـمها حتـى الأغـاني والعطـور! هـي الآن تتـدربُ كمعيـدةٍ في جامعـةٍ خاصـةٍ ضمـن نشـاطٍ طـلابي، ربمـا تحولـتَ لآلـة مذاكـرة في عامـك الأخـير مـن أجلهـا يـا بطـل، كي تصـيرَ مُعيـدًا أنـت الآخـر، هـل هـي عقـدة أن تكـون أقـل منهـا درجـات هـي مـا دفعتـك لـكل هـذا؟ كيـف أكـون أقـل في المسـتوى العلمـي مـن حبيبتـي؟.. لكنهـا حبيبتـك فـما المشـكلة؟ أم أنهـا حبيبتـك بـلا كلـماتٍ معهـا كهنـد؟

سـنعرفُ كل شيء؛ فأنـا لم أضيـع وقتًـا يـا صديقـي، هـا أنـذا في الجامعـة الخاصـة أسـأل في النشـاط الطـلابي عـن المحـاضِرة ياسـمين عـماد، أجدهـا في السكشـن الـذي شـارف

على الانتهاء، أنتظرُ خارجًا ريثما ينتهي، وأقضي الوقت في تتبع ألغازك يا كافكا! كيف؟!.. بتصفح بريدي الإلكتروني على الهاتف، رائع!.. جاءني الرد على الرسالة! أي رسالة؟! الرسالة التي تحوي سؤالًا مهمًّا عن العلاقة بين (إبيقوريا) و(مزدكيا) و(فرويديا) و(بومبي)، أرسلت السؤال لأستاذ تاريخ بكلية الآداب، شرحت له فيها الموقف على أساس أن الكلمات وردت في مقالٍ قديمٍ لكاتبٍ ياباني وأحب أن أفهم مغزاها، لنرى ما يقوله أستاذ التاريخ:

- "يبدو أن الكاتب في مقولته هذه ينعى تدهور الأخلاق في مجتمعه، فالرابط بين الكلمات الأربعة من حيث الأصل هو الإباحية الجنسية الصريحة في كل كلمةٍ، فديانة مزدك وفلسفة إبيقور ونظريات فرويد، كلها تشتركُ بشكلٍ ما في الإباحية والدعوة لها، تمامًا كما حدث في مدينة بومبي الرومانية إبان القرن الثامن عشر".

***

هكذا إذن؟!!.. هذا يتفقُ مع سخريته من ملابس فتيات كليته! هكذا عرفنا عَلاقة وحللنا لغزًا، فماذا عن

العَلاقة واللغز الآخر؟! الرواياتُ الخمس التي لم يقرأ بعدها شيئًا، فلأطلب رقمَ خطيبتي دعاء على الفور:

- "المحقق كونان يتصل بي؟!.. هل انتهت القضية أم ليس بعد؟"
- "ظهرت أدلةٌ جديدةٌ أيها المفتش دعاء، هل انتهيتِ من قراءة هداياك الأربع؟"
- "انتهيت يا أستاذ، أي هدايا هذه؟"
- "ماذا بها يا حبي؟ هل وجدتِ شيئًا يربطُ بين الروايات كلها؟"
- "وليتني ما وجدته، أتدري ما الرابط؟.. إنه فألٌ سيئ منك يا عبده"
- "أخبريني بالله عليك"
- "الموت!... الروايات الأربع تفوحُ برائحة الموت! السقا مات وجلجاميش تقصدان الموت مباشرةً، ومنافي الرب تحكي عن كواليس الموت خاصة الدفن والقبر، حتى مجلد تولستوي يحتوي قصةً عن الموت اسمها موت إيفان إيليتش".

- "انتظـري... حديـث الصبـاح والمسـاء هـي الأخـرى تحكـي عـن الحيـاة والمـوت.. خاصـة المـوت كمـا جـاء فـي المسلسـل، رائـع يـا دعـاء راااائـع!"

- "مـا الروعـة فـي الموضـوع؟ هـل تكتـبُ ورقـةً بحثيـةً عـن المـوت فـي الأدب أم تنـوي إصابتـي بالفالـج يـا..."

- "دعـاء.. معـذرةً يـا حبيبتـي، وداعًـا الآن فمديـري فـي العمـل قـادمٌ! سـلام سـلام!"

- "المديـر أهـم منـي؟!.. أنـا أيضًـا لـديَّ مديـري علـى فكـرة!"

***

إذن.. فقـد قـرأ خمـس روايـات عـن المـوتِ في خمسـة أيـام، كان مشـغولًا بالتفكـير بالمـوت لهـذا الحـد؟ هـذا يُذكـرني بـشيء مـا، أتصـل برقـم أم محمـود فـورًا، بعـد التحيـة أسـألها مبـاشرة:

- "أمـي.. هـل مـات لمحمـود صديـق أو قريـب منـذ حوالـي سـنة؟"

أي منـذ قاطـع الأدب، أي منـذ قـرأ روايـات المـوت الخمـس، منـذ بـدأ برسـم الفراشـة كاملـة بقـط وغـراب، تصمـتُ الأم لوهلـةٍ:

- "بالفعـل يـا بنـي.. (مهـا) رحمهـا اللـه ابنـة عمته الشـابة، رحلـت بسـبب المـرض الخبيث"
- "هل حزن عليها بشدة؟"
- "بالطبـع.. كلنـا فعلنـا هـذا، محمـود مكـث فـي المسـجد يومـه بالكامـل حيـن عـرف الخبـر"
- "وما رد فعله حين تذكُرونها؟"
- "لا أفهم قصدك.. بالطبع نترحَّم عليها"
- "أعني هل يصمتُ أم يبكي مثلًا؟"
- "فـي الواقـع يصمـتُ.. محمـود لا يبكـي كثيـرًا مؤخـرًا، لكـن.. كيـف عرفـت هـذه الحكايـة يـا عبـده؟"

***

-١٣-

حللنا لغزين.. والآن إلى اللغز الأكبر، انتهى السكشن.. وتوافد الطلبة الخارجون، صاخبين مُتمهلين في الممرِّ الذي ازدحمَ بالفصولِ المماثلةِ، ظلت معيدةُ المستقبل المنشودة بالداخل قليلًا حتى استبطأتها، وحين ذهبتُ لألقي نظرةً، وجدتُها تُواجهني إذ اقتربت خارجة في نفس اللحظة.

لله درُّك يا كافكا!... لله درُّك يا أبا ياسمين حين سميتها هكذا! ما كذبتَ وما بالغتَ! خدعونا فقالوا إن بنات هندسة (غفر)! هُن لسن غفرًا أو جميلاتٍ حتى، هن ملكات جمال بلا شك! لكن ما هذه الملابس؟! خفيفةٌ شفيفةٌ، تُغطي مساحةً قليلةً من الذراعيْن! فهمت !.. لهذا أحبها بالشتاء وكرهها بالصيف! غير أن الجينز لم يكن ضيقًا كالعادة، بل واسعًا فضفاضًا، كأنها لم تقصد

الإغـراء الكامـل، كأنهـا طبيعتهـا المتحـررة وحسـب، كانـت فتاتـه واحـدةً ممـن يسـخر منهـن؟!

غديرتها ذيـلُ الحصـان تتأرجـحُ خلـف ظهرهـا.. لهـذا كان يظنهـا مسـيحيةً! بشرتُهـا البيضـاءُ وأنفُهـا الدقيـقُ، جمالهـا يميـلُ للغـرب كأمـيرات ديـزني! لم آتِ هنـا للتغـزل في حبيبتـك يـا محمـود، أنـت معـذورٌ حتـمًا.. مثـلي، هـذا الوجـهُ خُلـق ليُحبـه مـن يـراه، تمالكـت نفـسي بسرعـةٍ، كأننـي أفقـتُ أخـيرًا مـن صدمـة الجـمال المبالـغ فيـه الـذي باغتنـي، خرجـتْ متجاهلـةً نظـراتي المبهوتـة كأنهـا اعتـادت مثلهـا، لحقـت بهـا:

- "باشمهندسة ياسمين.. لحظة من فضلك!"

التفتـتْ موجهـةً نظراتِهـا المتسـائلةَ- المتعضـة نوعًـا!- قبـل كلماتهـا:

- "نعم؟"

- "أنـا الدكتـور عبـد الملـك شـريف... أُشـرف علـى حالـة زميـلٍ قديـمٍ لـك... أظـن أنـك تعرفينـه"

تغيرت ملامحُها بسرعةٍ إلى الدهشة البحتة:

- "زميلي؟!.. أي زميل؟"

- "زميلـك المدعـو محمـود مصطفـى.. المعـروف بمحمـود كا فكا"

بان الشكُّ والضيقُ في وجهها، قالت في برودٍ:

- "هل هذه مزحةٌ؟! ما دخلي أنا بالأمر؟"

- "إذن فأنت تتذكرينه، أنا طبيبُ الامتياز مساعد الاستشاري النفسي الذي يُعالجه، محمود في حالةٍ نفسيةٍ بالغة السوء، هو لدينا الآن في المصحة، لا لم يُصبح مجنونًا، أنتِ تعرفين تعب الأعصاب، فقط كنتُ أودُّ الحديثَ معك قليلًا عن عَلاقتك به، قد يفيدنا هذا في علاجه"

تُحدِّق بي بلا تعبيرٍ، تقولُ بنفس البرود:

- "هو من أخبرك باسمي إذن؟"

- "لا.. أعني نعم، عرفتُ هذا من مذكراته.. نعم مذكراته!"

نظرتْ في الأرض لوهلةٍ، ثم:

- "دكتور... هل لي أن أطَّلع على كارنيه الكلية الخاص بك؟"

***

لم أتوقع هذا.. وبُهِت الذي كذب، لاحظتْ هي ذلك.. رمقتني بازدراءٍ ثم تركتني دون كلمةٍ واحدةٍ، لكن.. لكن

لحظـة.. لم أنتـه بعـد، لا بـد أن أعـرف مـا حـلَّ بكافـكا مـع حبـه، أكانـت هـي السـبب في صدمتـه؟ هـل فشـل في هـذه التجربـة فانتهـى بـه المطـافُ لهـذه الحـال؟! لـن يتوقـفَ بحثـي هنـا.. لـن يتوقـفَ، أخرجـتُ كارنيـه الكليـة وكارنيـه العمـل ولحقـت بهـا مجـددًا:

- "باشمهندسة.. أرجوك، استمعي لي فقط"

تستديرُ بسرعةٍ في اتجاهي، تهتفُ في انفعالٍ:

- "هل أنادي لك الأمن؟ فلتتركني لحالي وإلا..."

أبرزُ لها الكارنيهين وأقول مسرعًا:

- "أنـا لسـتُ لصًّـا أو قاتـلًا... ولا أتسـلى بـك حتـى، أنـا تخرجـتُ للتـو مـن كليـة الألسـن... محمـود هـو صديقي، صدِّقينـي هـو الآن فـي أسـوأ حـالٍ و.."

- "أعرفُ ما حصل له"

- "حقًّا تعرفين؟!"

- "أعـرف.. أخبـار نبوغـه بلغـت كل مـكانٍ فـي الكليـة، ثـم أخبـار سـقوطه فـي أزمـةٍ عصبيـةٍ أو مـا شـابه، أعـرفُ كل هـذا.. لكـن مـا عَلاقتـي أنـا بـه أصـلًا؟!"

- "أنا الذي بحثتُ عنكِ لأسألك هذا السؤال، عشر دقائق فقط من وقتك، تُساعديني بها، أنا صديقه فعلًا.. هاتفه معي ويُمكنك التأكد من والدته و.."

تضحكُ لكلماتِي:

- "أعلمُ أنك صديقه! ليست المشكلةُ هنا"

- "ما من مشاكل صدِّقيني.. لنبقى هنا ريثما تحكي لي فقط عن تجربتك معه وأذهب لحالي"

تصمتُ للحظةٍ، تستندُ إلى درابزين السلم، تزفرُ في تسليمٍ:

- "بل نجلسُ في كافيتريا الكلية، لننتهي سريعًا من هذا العبث، لن أخسرَ شيئًا، ولعلك صادقٌ في النهاية"

***

راحتْ ياسمين تحكي قائلةً:

"عرفتُ صديقك في العام الأول، إعدادي هندسة كما نُسميه، تلاقينا في معامل الكيمياء في الأيام الأخيرة من العام، حين يُراجع الطلبة التجارب قبل امتحان العملي، لم يُخفِ محمود نظراته نحوي من حينٍ لآخر، كنتُ دائمًا

بعيدةً عنه مع زميلاتي في نهاية المعمل، ذات مرةٍ أسقط ما في الأنبوبة وأحرق معطفه الأبيض، بالغ في سرحانه بينما يُحدق بي!"

"على كلٍّ حالٍ ليس هذا بجديدٍ، مَن هي مثلي أَلِفَتْ هذه النظرات واعتادت المُريدين، لا أشكر في نفسي أو أتفاخر بما لديَّ، أنا أقرر الحقائق فقط، منذ نعومةِ أظفاري كان هذا نمط التعامل الوحيد معي، خاصة من الرجال بكل أعمارهم، لم يكن محمود أول المتوددين أو آخرهم!"

"ربما لهذا ذاكرتُ وكافحتُ بشدةٍ لأثبتَ للعالم كله، أنني لستُ وجهًا مليحًا فقط، أنا عقلٌ راجحٌ ليس بالسهل، لن أكونَ سوى مهندسةٍ تقتحمُ أصعب المعادلات والنظريات والمناهج المُعقدة، وقد حدث وأثبتُّ نفسي طوال عمري حتى الآن، ما الذي تطرَّق بي أصلًا لهذه النقطة؟! لنعد لصديقك الذي بحاجةٍ للمساعدة"

"في العام التالي كنا في قسم الميكانيكا العام معًا، لكننا افترقنا في المجموعة، هذا لم يوقف صديقك عن تعقُّبي، ألفيته في كل محاضرةٍ يُمكنه أن يتواجدَ فيها عندنا، كل محاضرةٍ وكل سيكشن، حتى في الامتحانات وجدته قريبًا مني في المدرج! نظراته لم تعد محدودةً قليلةً، بل كانت

سـهامًا يُوجههـا نحـوي في كلِّ مـكانٍ وزمـانٍ، حقًّـا سـئِمتُ هـذا الحصـار، لكنـه أعلنهـا لي صراحـةً، أنـا تحفـةٌ فنيـةٌ أو كائـنٌ فضـائي جميـلٌ يسـتأهل النظـر والتأمـل!"

"شيء آخـر، كنـتُ لا أكلـم الأولاد أبـدًا وقتهـا، حتـى في المـدرج، كنـتُ أجلـسُ في مـكانٍ ثابـتٍ عنـد حـرفِ البنـش كيـلا يجلـس أي طالـبٍ بجـواري، لا وقـت للصداقـاتِ البلهـاء، خاصـة أننـي أعـرفُ نفـسي، الـكل يمنِّـي نفسَـه بنظـرةٍ منـي، فـما بالـك بصداقتـي؟ لكنـي لـن أضيـع وقتـي الثمين لجلسـاتٍ في حديقـة الكليـة للعـب spin bottle أو الصراحـة وكل هـذه التفاهـات، أنـا أرجـح بكثـيرٍ مـن هـذا"

"صديقـك لم يُـراعِ هـذا وظـل عـلى حالـه، بـل اختـار مكانًـا ثابتًـا هـو الآخـر لا يُغـيره في المـدرج لـيراني بأفضـل صـورةٍ ممكنـةٍ! حتـى أبديـت مللـي وسـأمي جـرَّاء كل نظـرةٍ منـه، مـا بالـه... ألا يُريحينـي منـه؟ لِـمَ لا يـأتي ويُعلـن لي نيتـه في الصداقـة الحمقـاء لأحسـمَ لـه هـذا الأمـرَ وننتهـي ؟ وكأنمـا سـمع خواطـري، فبعـد أيـامٍ قلائـل.. ألفيتـه أمامـي بمعطفـهِ الأنيـقِ مبتسـمًا في حـرجٍ، يطلـبُ منـي بضـع دقائـق ليقـولَ شـيئًا مـا"

"لكنـي وجـدتُ نفـسي أنكـر معرفتـي التامـة بـه وكأننـي لم ألقـه يومًـا! أنـت مـين أصـلًا؟!!... تخيَّـل رد فعلـه وقتهـا!

عرَّفني بنفسهِ سريعًا.. بعدها ألقى قنبلته فورًا، لا لم يقل إنه يُحبني ولكن...."

- "أردتُ إخبارك فقط أنني..."

- "هه... ماذا؟"

- "مُعجب بك جدًّا!"

ضحكتُ وقتها كثيرًا، أي صراحةٍ هذه وأي دخلة؟ لكن لم يكن لديَّ ما أقوله، مُعجب بي؟.. طيب! فلتعلم أني لا أصادق أحدًا!

- "لكني لا أريدُ الصداقةَ أبدًا"

أقطِّبُ في وجههِ بطريقتي الباردةِ كالثلج:

- "إذن ماذا تُريد؟"

لم يقل شيئًا، ظل يتجنبُ النظرَ إليَّ وقتها كأنه يُحدق في الشمس! أحين تأتي أمامي مباشرةً تخجلُ من النظر؟! ألا تُريدُ الكلام أيضًا؟

- "بعد إذنك!"

وتركتُه وذهبتُ.

- "باشمهندسة!"

جززتُ بغيظٍ على أسناني، والتفتُّ له:

- "هل تذكرتَ ما تُريد قوله؟"

- "بشأن.. بشأن شَعرك!"

- "!!!"

- "..."

- "شَعري... ما به شَعري؟ هل أنت مُعجبٌ به كثيرًا هو الآخر؟!!"

- "لا شيء.. لا شيء ألبتة... آسف لإزعاجك، تفضلي!"

***

"وذاك هو التعاملُ المباشرُ الوحيدُ بيني وبينه، لم نتحدث بعدها لمرةٍ واحدةٍ، ظل يحضرُ في مجموعتي ليستزيدَ من الشرح فقط، فقد كفَّ عينيْه عني قليلًا، ولا أُخفي عنك أنني بدأتُ أهتم بالنظرِ له في تلك الأيام! خاصةً حين تخلَّى عن مقعدِه لي ذات مرةٍ، مَن هذا الشخصُ الغريبُ الذي يُكلم فتاةً بشأن إعجابه ثم بشأنِ شَعرها؟! لم أفهمه حتى يومنا هذا!"

"وفي العام التالي استمرَّ في زيارة محاضراتي بين الحين والآخر، بلا نظرةٍ واحدةٍ لي، بل كان يشيح عني ما وسعه

ذلك! ربما لتدينه في تلك الفترة كما أظهرتْ لحيتُه النابتةُ، بعدها بعامٍ عرفتُ خبر تفوقه بجدارةٍ وتحطيم أساطير قسم ميكانيكا إنتاج، ثم الخبر الآخر بأزمتهِ النفسيةِ الحادة جرَّاء الإفراط في المذاكرةِ، استغل الطلبة هذا الخبرَ الأخيرَ بالذات في توجيه اللوم الصامت للأساتذةِ كي يخفُّوا الضغط عنهم قليلًا، فها هي ذي نتيجة أسلوبهم في التدريس أن فقد زميلُهم عقله!"

"يبدو أن هذا حدث فعلًا في سنة التخصص، فقد قابلته ذات مرةٍ في الحافلةِ ولم يُحرك عينيْه للحظةٍ في اتجاهي، إنسان آلي فعلًا كما وصفوه، وحين رآني لم يتأثر للحظةٍ وكأنني محضُ هواء أمام ناظريْه! أنا التي بقيت مُحدِّقةً فيه وقتها أتصعَّب وأُحوقل! هذا الفتى ضحية الأساتذة الحمقى!"

"هذا كل ما لديَّ عمَّن تسمونه كافكا! والآن بعد إذنك بلا كلمةٍ أخرى".

***

-١٤-

عُـدتُ مـن لقـائي مـع ياسـمين عـماد، مُثخَنًـا بالأسـئلةِ، أسـيرُ نحـو بـاب الكليـة سـيرًا جنائزيًّـا لم أقصـده، لم يفـدني كلامُها كثيرًا، وإن عرفت منه جانبًا مؤكدًا في كافكا، خجله الشـديد الـذي انقلـب لصراحـةٍ عارمـةٍ، صراحـة لم تكتمـل للحـدِّ الـذي يُخـبر فيـه حبيبتـه أن تتحجـب! فلـم تفهـم المُعيـدة ذات العقـل الراجـح أنـه قصـد شـعرَها وسُـفورها، محمـود المتديـن تمنـى لـو تُغطـي حبيبتـه التـي عشـق النظـرَ إليهـا شـعرَها، لم يسـتطعْ إلا محـض تلميحٍ بخيـلٍ، ولعـل هـذا كان الأصـوب.. أم ربمـا لا؟

كافـكا كان يحـضرُ المحـاضراتِ مرتـين وثلاثًـا مـن أجـل نظـرةٍ لوجـهِ حبيبتـه، جلـس في مـكانٍ معـينٍ لا يتغـيرُ، ليـس لرؤيـةٍ أوضـح لكلـمات المحـاضرة المكتوبـة، وإنمـا لملامـح حبيبتـه المرسـومة بيـد خـلَّاقٍ بديـعٍ قديـرٍ! محمـود.. هـل انتهـى بحثـي هنـا، لم أصـل لـشيء، لم أعـرف مَـن حبيبتـك

سـبب كبوتـك، أيـن مذكراتـك حقًّـا التـي ادعيـتُ لياسـمين أننـي عرفتُهـا منهـا؟ لمـاذا تضـنُّ عـليَّ هكـذا بـأسرارك؟! لِـمَ لَمْ تُخـبرني في أحلامـك العشريـن بأكـثر مـن ذئـبٍ ودُبٍّ؟، أفصحْ قليـلًا عـن رمـوزِك التـي تتركهـا في كلِّ مـكانٍ تـزوره و... و.. رمـوز؟!... مـكان تـزوره؟!.. رسـومات وكلـمات؟!.. معـاني خبيئـة؟!... هنـاك أمـلٌ إذن!

هل فكَّرتم فيما أفكرُ؟!!

***

باشمهندسـة ياسـمين، لا بـد أن ألحـق بـك، هـا أنـا ذا أعودُ أدراجـي إليـك، الأمـل ضعيـفٌ.. الخيـطُ واهـنٌ متـآكلٌ، لكـن لا بـد مـن المحاولـة، كافـكا... أرجـوكَ يـا صديقـي، أفصحْ هـذه المـرة.. واسـتخدم القلـمَ الجـافَّ في رسـمِك وكتابتِـك! ورأيـتُ المهندسـةَ الفاتنـة هنـاك، تسـتعدُّ لركـوبِ سـيارتها الفارهـة، وصلـتُ إليهـا ألهـثُ، حمـدًا للـه أننـي لحقـتُ بـك، ترمقنـي عـبر نظـارةٍ سـوداء بالغـةِ الأناقـة مـن نافـذة السـيارة:

- "هـل جئـتَ تطلـبُ إلـيَّ أنْ أقابـل صديقـك وأعيـده لرشـده؟! ربمـا تطلـبُ منـي أن أعانقـه كذلـك! عندهـا صدِّقنـي لـن أتـرددَ فـي دهسِـك بسـيارتي!"

أضحكُ في عصبيةٍ، وتضحكُ هي بفعلِ ضحكي لكنها تُومئ بجديةٍ:

- "ليس الأمرُ كذلك صدِّقيني، فقط أردتُ أن أعرفَ شيئًا، سؤالٌ واحدٌ أنتِ فقط القادرة على إجابته"

- "معامل مرونة الحديد تقصد؟!... هذه أمورٌ هندسيةٌ لا تعنيك!"

- "لا ليس هذا.. فقط أريدكِ أن تصفِي لي المكانَ الذي كان كافكا يجلسُ فيه حين يحضر ليراكِ، صفِي لي المكانَ بالتفصيلِ والمدرجِ و.. وكل شيء آخر لأصلَ إليه!"

تصمتُ.. ينعقدُ حاجباها قليلًا فوق النظارة، تمطُّ شفتها السفلى في تسليم، تخرُج قلمًا ونوتة من حقيبة يدِها:

- "لا أفهم شيئًا، لكن لو سألتني عن مقعده المفضل في كل سنين الجامعة لطعنتك بهذا القلم، لحظةً حتى أرسمَ (كروكي) للمكان، شغل هندسة ودماغ كما تعرف"

خطَّت رسمًا سريعًا وناولتني الورقةَ بعدما نزعتها من النوتة، وابتسمتْ باقتضابٍ لكلماتي الممتنة، ثم خرجتْ

بسيارتِها حامدةً ربَّها أنني سأنقشعُ عنها، أما أنا فقد استقللت سيارة أجرة لأول مرةٍ منذ سنتين! أحب المشي عادةً وإلا فالحافلةُ أفضل، لكن هذا فقط لألحقَ بكليتك يا محمود، وصلتُ بعد دهرٍ، ذهبتُ نحو المُدرج المُحدد، مدرج ٢٠٢ج و... مغلق! الساعة تعدَّت الثانية ولا محاضرات أخرى اليوم.

العاملُ.. أين العاملُ؟ ها هو ذا... أرجوك.. آلتي الحاسبة.. لا بل ورق المراجعة.. بل البطاقة الشخصية، ها هي ذي حلاوة عودة الأشياء الضائعة لي، أرجوك افتحْ هذا الباب! ويفتح البابَ أخيرًا.. ويُضيء لي الأنوار، انظر في الكروكي بينما أذرع المكان نحو ضالتي، البنش الثالث على اليمين.. عند حرف البنش من جهة اليسار و.. ها هي ذي فعلًا!... حمدًا لله، ها هي ذي الآثار الكافكاوية ذاتها على البنش بقلمٍ أزرق لم ينمحي إثر السنين.

ليس هناك فراشاتٌ أو حيواناتٌ، لم تتعقَّد الأمورُ وقتها لهذا الحدِّ، لكنَّ هناك وردةً كبيرةً لم ألقها من قبل، هناك منحنياتٌ كثيرةٌ تُشبه القلوبَ مرسومةً في شبكةٍ رياضيةٍ بيانيةٍ! هناك دوالُّ رياضيةٌ تُمثل أشكالًا عجيبةً، هناك.. هناك.. لا شيء آخر، كافكا.. لا تفعل بي هذا، عرفتُ أنك لن تتركَ هذا الموضع فارغًا بالذات، لا تُرجعني لمنزلي دون

فائدةٍ، ما الجديدُ هنا.. القلوب.. الدوالُّ العجيبة.. الوردة و... الوردة.. لحظةً واحدةً!

في قلبِ الوردة، كلمتان اثنتان بخطٍّ صغيرٍ مُزخرفٍ ومُشَكَّلٍ، واحدة فوق الأخرى، العليا أقل في الحروف تتحدُّ مع السفلى في اتساقٍ بديعٍ، كلمتان عجيبتان.. لم أجد لهما معنًى في البداية، قرأتهما مرارًا وتكرارًا حتى غامت الرؤيةُ أمامي، كلمتان فقط... لم يحسما شيئًا، وأضافا لغزًا آخر.. بل ألغازًا كافكاوية أخرى.. كلمتان فقط.

"بِنْتُ النَّبِي"

هكذا فقط يا كافكا؟!.. بنت النبي؟!

***

"بنت النبي"

كنتُ في غرفتي مُفكرًا، كعادتي هذه الأيام، شاردًا على الدوام، تُناديني أمي لأجل العشاء فأردُّ أني قادمٌ ولا أُحرِّك ساكنًا، لأنني أغرقُ في عالم كافكا، كافكا المصري وليس التشيكي، ماذا بعد يا صديقي، ولماذا "بنت النبي" بالذات التي كتبتها بينما تتأملُ محبوبتك عن قربٍ؟ ماذا عنيتُ هذه المرة؟ أي نبي؟ ولماذا تراها ابنته؟! أهو محمد عليه

الصلاة والسلام؟ فأين ياسمين من بناته؟! وهل إحداهن اسمها قريبٌ حتى من ياسمين؟! هل هناك أصلًا من الأنبياء من سمَّى ابنته بياسمين؟!! أنا سمعتُ قصص الأنبياء ولا أذكر أي شيء كهذا، هل أحضر العهد القديم وأقرأ سير الأنبياء من أجل لمحة عن الياسمين، أهيَ تسلية شخصٍ مثقف مثلك وحسب؟! ترسم وردةً وتكتب فيها فخورًا.. بنت النبي!

أظنني انتهيتُ هنا يا صديقي، أحتاجُ لدان براون أو يوسف زيدان كي أحل هذه المعضلة ولعل هذا لا يحدث بوجودهما أيضًا! أهو الـ game over لكلِّ هذا يا كافكا؟! لن أكلم أمك أبدًا، بل سأدعُ هاتفك أمام باب الشقة، أطرقُ الباب وأهربُ كالأطفال، مع رسالة اعتذارٍ بخطٍّ خجولٍ خزيان، معذرةً يا أمي.. لم أنجح في فكِّ العَمل، أظنه مكتوبًا على جلد قرموط، وكما تعرفين.. من الصعب أن نجدَ القرموط لنطعمه لكافكا حتى يفيق! وهل يجب أن نطعمه القرموط؟! لا أعرفُ.. أقسم أنني لا أعرفُ.

تُنادي أمي مجددًا بصوتٍ أعلى:

- "قاااااادم...حالًا يا أماه"

هكذا، انتهى الأمرُ هنا.. كما يبدو.

***

أُلقي بالمفكرةِ على المكتب بضيقٍ، كانت صفقةً خاسرةً منذ البداية، مع من كانت الصفقة أصلًا؟!... مع لا شيء! مع الوهمِ ولذا هي خاسرةٌ، ذهبت للردهة حيث تركت لي أمي عشائي أمام التلفاز، وقد رفعتْ صوته- التلفاز- لتسمعَ مسلسلها المفضل أثناء العمل في المطبخ:

- "لا تُغير المسلسل يا عبده!"

- "حاضر يا أماه"

في الواقع، كنتُ أحب المسلسل أنا الآخر وأتابعه حين تُتاح لي الفرصة، رغم كل الشبهات الموجهة نحوه، أعشقُ فيه القصة والدراما الإيمانية البديعة، أتجنب النظرَ فقط لممثلي الأنبياء كيلا يحتفظ عقلي بوجوههم عند ذكر أي نبي، رفعتُ الصوتَ أكثر.. وبدأت بالأكل:

- "يوزرسيف... اخترت لك زوجةً مناسبةً"

يوسف الصديق، يا لها من قصة... أحسن القَصص حقًّا و.. مضغتُ الطعام ببطءٍ، أتابعُ الأحداث بذهنٍ مكدودٍ:

- "إسينات فتاة جميلة.. تُناسبك حتمًا يا يوزرسيف"

شردت ناظرًا للشاشة، سرحتُ في محمود ثانيةً، هناك يرقدُ بلا أملٍ في العودة، ترى هل تابعتُ هذا المسلسل

مـن قبـل يـا كافـكا حـين كنـتَ.. (حيًّا)؟! هـل عرفـتَ إسـينات زوجـة النبـي يوسـف و.. وبنتـه؟!!!

***

بنـت النبـي يوسـف! النبـي يوسـف.. تـزوَّج؟!.. وأنجـبَ؟ وهببـتُ واقفًـا في لحظـةٍ، جريـتُ لأمـي في المطبـخ، فهـي شـاهدت المسلسـل مـن قبـل:

- "أمي.. هل تزوَّج النبي يوسف وأنجب؟"

استغربتْ أمي سؤالي المفاجئ ولهفتي:

- "نعم.. تزوَّج وأنجب!"

- "هل أنجب بنتًا؟"

- "بل ولدًا وبنتًا!"

- "ما اسم البنت؟!"

- "اسمٌ غريبٌ لا أذكره.. لماذا تسأل؟"

- "لا شيء.. أردت استباق الأحداث"

غسـلتُ يـدي بسرعـةٍ، ذهبـتُ نحـو هاتفـي الخلـوي، كتبـتُ ثـلاث كلـماتٍ فقـط في شريـط البحـث عـلى الإنترنـت، ثـلاث كلـمات محـددات قـد تفتـح مجـالًا جديـدًا للبحـث في

قضيتك يا كافكا، ربما.. ربما يكون هذا هو الحل.. ربما يكونُ هو النبي المقصود؟ بعد اليأس الذي انتابني.. دعْني أجرب، و.. كتبتُ الكلمات:

- "بنت النبي يوسف"

وضغطتُ زرَّ البحث.. ومرَّ شريطُ التحميلِ سريعًا وظهرت النتائج:

- "مانيسّا بنت يوسف التي أنجبها.."
- "سمَّاها مانيسا لأنها آنسته أحزانه..."
- "اسم جميل يُدعى مانيسا وهي بنت سيدنا يوسف.."
- "كان عليه السلام له من الأبناء مانيسا وإفرايم.."

هكذا إذن.. اسمها مانيسا..

مانيسا... ياسمين..

ياسمين... مانيسا؟!

هل ثمة رابط هنا؟... أي رابط؟

و... يا إله السماوات!

يا لك من محمود كافكا!!

***

-١٥-

مانيسَّـا... وياسـمين! وتطابـقٌ في حـروف الكلمتـين يـراه الملاحـظ اللبيـبُ! إذن فهـذا مـا قصدته يـا كافـكا؟ حبيبتك هي بنـت النبـي في نظـرك؟ لمحـض تشـابه الاسـمين في الحـروف؟ وإلام يوصلنـي هـذا؟ مـاذا عـن الذئـب والـدب و... لحظـة لحظـة! الذئـب.. ذئـب النبـي يوسـف عليـه السـلام! الذئـب الـبريء مـن دمـه! إذن.. فهـي الخطـوطُ العديـدةُ تتلاقـى يـا كافـكا! خطوطـك أنـت، ربطـت بـين كل هـذا لـشيءٍ مـا، للكثـيرِ مـن المعـاني في عقلـك، أنـت الـذي عشـتَ منعـزلًا عـن العـالم، اتخـذت رمـوزًا لـكل شيء، لا يفهمهـا سـواك، وانتهـى بـك الحـال هكـذا و.. ولا بـد مـن فـكِّ الخطـوط والعُقـد! حتـى أفهمـك حقًّـا يـا محمـود كافـكا! يـا مـن لففتنـي السـبع دوخـات!

مانيسا، ليس الأمرُ تشابهًا بالحروفِ وحسب بل هو أعقد من هذا، المهم أنني عرفتُ أصل رموزك وخباياك، قصة النبي يوسف عليه السلام، وربما قصص أخرى للقط والغراب، ابني آدم مثلًا للغراب؟ فالغرابُ يُمثل الموت بالطبع كما تثبت الفراشة المرسومة في وقت موت قريبتك، وماذا عن القط؟!.. لحظة أخرى، هناك قطط في حياتك يا كافكا، وقد أبكتك من قبل، أبكتك حين ماتت!

الآن.. فلنكمل السعي، أخرجتُ ورقة فلوسكاب ضخمةً، كتبتُ عليها عشرات الكلمات، وعشرات الأفكار والخطوط، وبين الخطوط تتلاقى نقاطٌ مشتركةٌ مضيئةٌ قد تعني شيئًا ما، وأمامي الإنترنت السريع في حاسوبي الشخصي، سأضيفُ به المزيد من الأفكار والخواطر، فهلا نبدأ الآن؟ حينما اكتشفتُ اسم حبيبتك شيء... والآن بينما أكتشفك أنت ذاتك يا كافكا.. شيء آخر.. شيء مختلفٌ.. شيء أدعو الله أن أقدر عليه!

***

فلنبدأ من حيث انتهينا... مانيسًا..

بنت النبي يوسف.. لكن هل هذا كل شيء؟

فلنبحثْ في الإنترنت عنها... مانيسًا فقط..

بحث..

مانيسا : مدينةٌ في تركيا!!

مانيسا : هي إحدى محافظات غرب تركيا يبلغ تعداد سكانها...!!

مانيسا : مدينة الأساطير !!

مانيسا : احجز أفضل فنادق مانيسا !!!

***

يخرجُ خطٌّ بلونٍ أحمر مُميز من كلمة مانيسا بنت النبي يوسف إلى كلمة الخاتم، الخاتم الذي ارتداه كافكا وعليه اسم مدينة تركية كما أخبر صديقه! من الأوقع أن تُخبر الناس أن خاتمك هدية من صديقٍ تركي على أن تخبرهم أن به اسم حبيبتك التي تراها بنت النبي يوسف! امنحني المزيد من أسرارك يا كافكا العجيب المُلغز!

لكن بعيدًا عن تشابه الحروف.. كيف ولماذا تنعتها ببنت النبي يوسف؟! ألا يُعد هذا مبالغة يا صديقي؟ ماذا فعلت أصلًا لتقولَ هذا عنها؟!! ما من سيرةٍ وافيةٍ لابنته عليه السلام حتى أبحثَ فيها عن طرف خيطٍ،

هـي مذكـورةٌ بالاسـم فقـط مـع أخيهـا إفرايـم، ولمـاذا تكتـب اسـمها في الخاتـم ثـم ترميـه وتعـودُ لتأخـذه مـن جديـدٍ و... و.. تفاقمـت الأفـكارُ والذكريـاتُ في ذهنـي، وعـادت تخطـر بلا تتوقـف.. تتشـعبُ.. تتشـابكُ.. تتـوالى وتجـرُّ بعضهـا البعـض..

***

- "محمود مصطفى.. يُنادونني محمود كافكا.."
- "كان منطويًـا علـى نفسـه طـول عمـره... انعزالـي مـن الدرجـة الأولـى.."
- "لا لكرة القدم... لا لمركز المدافع"
- "لـم يُحـب شـيئًا أكثـر مـن كتبـه وألعابـه وسـبيس تـوون.."
- "بـل أحـب (هنـد) ثـم (سـميرة) ثـم (ياسـمين)... كلهـن مليحـاتٌ بضفيـرةٍ.."
- "أخونُ صديقي وهذا مُحال"
- "يحملُ في جيبه دومًا زجاجة الفُل.. بل الياسمين.."
- "رأى القط ميتًا فبكاه كمن يبكي شخصًا عزيزًا"
- "شَعرك.. شَعرك يا باشمهندسة!"

- "صديقك ينعى تدهور الأخلاق في مجتمعه.. كأنه يعيشُ في مدينةٍ تُنادي بالإباحية"
- "صديقي أحبه كلام يُقال"
- "الغراب يعني الموت.. لا غربان أخرى في قصص الأنبياء.."
- "يتأثرُ بهاري بوتر كثيرًا.. ودان براون وتلك الكتب الضخمة.."
- "خلفيةُ الهاتف على شكل مرآة... هي الكاميرا الأمامية للهاتف.."
- "وهذا كلامٌ بليغُ الجمال"
- "موقف بسيط جدًّا هو ما أغضب كافكا مني.. تخيَّل هذا؟"
- "شكرًا لطوق الياسمين"
- "مسلسل عادي عن الصداقة الحقيقية.. يعتبره خياليًّا جدًّا"
- "ينظر في المصحف كل ربع ساعة"
- "كان يتهكم كثيرًا على ثياب الفتيات العادية.. ما بالك بالمغرية أصلًا؟!"

- "سمع خبر موت زميلنا في حادثٍ.. لم يتأثر ألبتة.."
- "كان خارجًا لتوِّه من تجربة موت قريبته الشابة.. لا يبكي عند ذكرها"
- "أقسم ألا أقول الأكاذيب"
- "استيقظتُ اليوم على حمَّام بارد... تبًّا للأحلام"
- "سأخترعُ نظارةً لحلِّ مشكلة الثياب الخليعة... ستجعل النظارة البنات في غاية العفاف!"
- "قرأ خمس روايات تتحدثُ عن الموت في وقتٍ قليلٍ"
- "مُحال يُقال الجمال خيال"
- "مانيسَّا بنت النبي يوسف"
- "سمَّاها مانيسَّا لأنها آنسته أحزانه"
- "كان يرتدي خاتمًا به اسم مانيسا"
- "كان عامه الثاني أفضل ما يكون.. حين حصل على جيد جدًّا"
- "سمَّاها مانيسَّا لأنها آنسته أحزانه"

- "أضاع الخاتم أكثر من مرة عن عمدٍ ويسترجعه ثانية"
- "لم يعرفني وأنا أعزُّ صديقٍ له"
- "كان وفيًّا جدًّا لصديقه... لكنه زهد في صداقتي ولم يتواصل معي"
- "نظر لي كأنني لوحُ زجاجٍ أمامه... المفترض أني فاتنته المحبوبة!"
- "سمَّاها مانيسًّا لأنها آنسته أحزانه"
- "ينظر في المصحف كل ربع ساعة"
- "ثمة زهور لا تذبل أبدًا"
- "سمَّاها مانيسًّا لأنها آنسته أحزانه"
- "حبيتك بالشتاء وكرهتك بالصيف"
- "أطرق في وجوم عند ضياع الخاتم... ثم هزَّ رأسَه مستسلمًا"
- "الخاتم به كلمة مانيسًّا"
- "هناك حقيقة واحدة فقط"
- "سمَّاها مانيسًّا لأنها آنسته أحزانه"

- "سمَّاها مانيسَّا لأنها آنسته أحزانه"
- "سمَّاها مانيسَّا لأنها آنسته أحزانه"
- "يكفي"
- "سمَّاها مانيسَّا لأنها آنسته أحزانه"
- "قلتُ يكفي!"

***

-١٦-

فعلًا يكفي.. فقد استقرت الفكرةُ واختمرت في ذهني، أي فكرة هذه؟! وهل هي حقًّا ما أصبو إليه منذ بدأتُ بحثي؟! هل أخيرًا وجدتُ نهاية تساؤلاتي؟! هل أتخيَّل للحظةٍ أن تكونَ فكرتي خاضعةً للمنطق والحقيقة؟!! إلى الإنترنت للتأكد إذن، أعلم أنه سيؤكد لي أفكاري، هي فكرةٌ ممكنةٌ في الأدب والخيال العلمي ولكن... ماذا عن عالمنا المقيد بالواقع وحسب؟!! سأفكِّر بخيالي إذن.. فالخيالُ يستحيلُ علمًا في لحظةٍ، وربما فعلها كافكا بشكلٍ ما، أحتاجُ الآن لشخصٍ آخر غير دان براون ويوسف زيدان لمساعدتي، أحتاجُ خبيرًا في ما وراء الطبيعة، وفي نفسِ الوقت أحتاجه مثقفًا عاقلًا.. خليطًا بين ساحرٍ وأستاذ جامعة! ربما أحتاج لأحمد خالد توفيق؟

بحثتُ لساعاتٍ طوالٍ، ثم بحثتُ في الشبكة العميقة، حيث المواقع المحظورة التي لا تصلُ إليها بالمتصفحِ العادي، هناك وجدتُ مواقع السحر والشعوذة، بالتأكيد كان كافكا سيفعل هذا، سيبحثُ في النت ما لم يكن قد زار ساحرًا و... بالفعل! كافكا.. والنت والسحر! استخدمت الخاصية التي تسمح لي بالبحث عن كلمتين معًا في نفس المقال، محمود + كافكا + السحر + النسيان، وكلمات أخرى كثيرة، تباديل وتوافيق بلا نهايةٍ حتى.. حتى وصلت لنتيجةٍ! هناك طريقةٌ على النت، غير معقولةٍ هي الأخرى، لا لم أجد أي ذكر لكافكا بها ولكن.. ولكنها أعطتني الأمل في فكرتي، الآن.. لا ينقصني سوى التجربة.

***

التاسعة مساءً، والقمر يكتملُ في شموخٍ، أستقل الحافلة للمستشفى، وأسائلُ نفسي للمرة المليون.. هل أنا أشد المخابيل جنونًا؟!.. أم لعلي أذكى العباقرة جموحًا؟!! المعاني كلها واحدةٌ، تصفُ حالتي بدقةٍ، غباء وجنون.. أو جموح وذكاء وألمعية، سأعرفُ الآن... سأعرفُ كل شيء، لم يزدني البحثُ في النت سوى تردد يشوبه الأمل !

هـو هنـاك في المستشـفى.. يرقـدُ بانتظـاري، بانتظـار مـن يُخرجـه مـن غيابـه الـذي قـد يطـولُ، فهـل أفعلها؟ أرجـو فقط ألا أجـد شـهودًا عـلى تجربتـي، لا آمـال تنعقـدُ في الصـدورِ ثـم تذهـب جفـاءً، أم محمـود.. وبالـذات أبـو محمـود، أرجوكـما لا تكونـا هنـاك، فعلـت هـذا كلـه مـن أجـل وحيدكـما، والآن دعـاني أخـسرُ في سـلامٍ، لا تُعذبـاني بنظـراتِ اليـأسِ بعـد انتظار الفـرج، هـل أنـا في يقـينٍ مـن الخسـارة بهـذا الشـكل؟! إذن لمـاذا لا أعـودُ أدراجـي وأنـسى الأمـر برمتـه؟

لا... فأنـت ناديتنـي بصمـتٍ حـين طـاردك ذئـبٌ عرفـت معنـاه، ودبٌّ أنقـذك زورًا ولعـلي عرفتـه هـو الآخـر، ربمـا عرفـتُ كل شيء.. وربمـا لم أعـرف شـيئًا عـلى الإطـلاق، دعنـي مـن خواطـري الآن، هـا أنـذا أجتـاز الردهـة نحـو غرفتـك في الممـرِّ، أدخـلُ والأمـلُ يملـؤني.. يمتـزجُ بالرهبـة، لكنهـما كانـا هنـاك.. أجفلـت الأم لرؤيتـي، أمـا الأب فقـد احتـدَّت نظراتُـه شـيئًا فشـيئًا وبـدا أنـه... أسرعـتُ قائـلًا:

ـ "دقيقة واحدة فقط... لن أمكث أكثر من ذلك"

ولم أنتظـر لثانيـةٍ أخـرى، ذهبـتُ نحـو رأس محمـود مغمـض العينـين، لعلـه يسـمعني الآن، بالتأكيـد يسـمعني.. أذنـه.. عقلـه.. خيالـه.. وجـوده وكيانـه، مِلـتُ قليـلًا عـلى أذنـه.. يفعمنـي الشـعور نفسـه، وكـما يقـولُ علـماءُ الديـن..

الجمع بين الخوف والرجاء، ما قرأتُه في النت يُشجعني.. يكسيني بأملٍ طامحٍ، قلتُ أخيرًا وبصوتٍ مسموعٍ:

- "مانيسًّا"

***

انتظرتُ متوترًا، كأنها لحظة فك الأربطة عن عيني البطلة في الأفلام القديمة، هل ستبصر أم لا؟! فما لي لا أقدرُ على فك أربطة وعيك يا كافكا!

- "مانيسًّا"

المرة الثانية.. أقولها بإصرارٍ، لكن لا شيء.. لا إفاقة، الأم ترمقني في جزعٍ، تنساب دمعتان منها تُمزقان ضلوعي، الأب يوجه لي أعتى نظرات الاحتقار والضيق.. وربما الشماتة، تعويذتي لفك العمل السفلي لم تنفع، انتهى، الخطة فشلت، بل كما قلت من قبل.. ليست هناك خطة من الأساس، الكلام عن السحر محض ترَّهات، رفعتُ رأسي عن رأسِه، أنظرُ إليه.. تمتلئ مُقلتاي بالدموع أنا الآخر، أقولها.. بكل يأسِ الدنيا وحزنها للمرة الأخيرة، بصوتٍ هزَّه البكاء والنحيب:

- "مانيسًّا"

و مـرت الثـواني بـلا إكـتراث بي ، أغمضـتُ عينـي مبتعـدًا عـن محمـود..أو كافـكا ، ذلـك الغائـب أيًـا كان اسـمه ، مديـرًا ظهـري لـه و لآلـه ، لم أفتـح عينـي حتـى وصلـت للبـاب ، لم أفتحهـا إلا حـين سـمعت شـهقة الأم خلفـي ، اسـتدرت ملهوفًا، رامقًـا كافـكا هنـاك..

وهنا..

وهنا فقط..

تحرَّكَ الجسدُ..

وفُتحت العينان..

وهمس الفمُ بشيءٍ ما...

***

الجُزْءُ الثَّالِثُ

سجين

– ١ –

لا شيء آخـر.. هنـا النهايـةُ المتوقعـةُ لإيسـاف برصيصـة، بـين أنيـابِ دبٍّ وبفعـل صديـقٍ واشٍ، لا يعـرفُ الحلـم مـن الحقيقـة، كـما لم يعـرف الحـقَّ مـن الضـلالِ، كـما لم يُميـز الصديـق مـن العـدو، إيسـاف يـا أحمـق، ربما لـو لم تكـن أحمـق، لما وجـدتَ نفسَـك هنـا الآن، لكنـتَ مثـل نائلـة أو بروتـس يهـوذا، لكنـك لم تكـن مثلـه أو مثلهـا، عشـتَ مُذبذبًـا طـوال عمـرك، لا تـدري أيـن الحـق، ولـو عرفتـه لا تفعلـه باطمئنـانٍ واقتنـاعٍ، ألا فسـحقًا لهـذا كلـه، ألا فسـحقًا لـك.

اركـع أمـام الـدب يـا إيسـاف، دعـه يبـدأ برأسِـك فيريحـك فيـما بعـد، اسـجدْ يا إيسـاف، اسـجدْ في اتجـاه الأرض المرسـوم، اسـجدْ كي تختبـئَ هنـاك بعيـدًا و... الصـوت، مـا ذاك الصـوت الـذي يُنـادي؟ وأي كلمـةٍ هـذه التـي أسـمعها..

ـ "مانيسَّا"

كلمـةٌ غريبـةٌ عـلى مسـامعي، مـن نفـسِ عـالم كلمـة يوسـف التـي سـمعتها مـن قبـل:

ـ "مانيسَّا"

تتكـرَّر الكلمـةُ مجـددًا بـإصرارٍ، يسـمعها الـدب هـو الآخـر ويـزومُ في غضـبٍ، انشـغل عنـي وكأنـه ينتظـر شـيئًا مـا، مـرَّ الوقـتُ ولم يحـدث شيء، اسـتعدَّ الـدبُّ للفتـك بي مجـددًا، انكمشـتُ في مـلاءتي أكـثر ولكـن..

ـ "مانيسَّا"

وهنـا ظهـر شيءٌ مـا، بـرز ظلـه قافـزًا خلـف الـدب، كان.. كان ذئبًـا، ذئبًـا رماديًّـا، هـو نفسـه الـذي طـاردني مـرارًا في الأحـلام، أنشـب أسـنانه في كتـف الـدب، الـدب الـذي هـاج ومـاج ثـم نزعـه مـن كتفـه صارخًـا، ابتعـدتُ في الركـن أراقـبُ المعركـة، وكيـف تتكافـأ المعركـةُ بـين دبٍّ وذئـبٍ؟ لكـن الأخـيرَ فـاز بعنـصرِ المفاجـأة، والسرعـة والشراسـة، يقفـزُ.. يخمـش.. يعـض، وكان ضخـمًا يصـلُ ارتفاعُـه إلى خـصري أنـا، هكـذا اسـتمرَّت المعركـةُ دهـرًا، يـزومُ الوحشـان بـلا نهايـةٍ حتـى كانـت الغلبـة للذئـبِ، حـين عـضَّ عنـق الـدبِّ الـذي تهـاوى كشـجرةٍ قطعـوا جذورَهـا، الـدم.. دم الـدب كان أبيـض، أبيـض لزجًـا ينـزُّ دافقًـا مـن جروحـه.

وقـف الذئـبُ فـوق جثـةِ خَصْمـه المقتـول وعـوى طويـلًا، ونــزل مــن فوقهــا متجهًــا إليَّ، هــل أقــاوم.. هــل أُحــاول؟ الذئـبُ أهـون مـن الـدبِّ عـلى كل حـالٍ، الذئـبُ الـذي صرتُ أسـمع أنفاسَـه، إذ يدنـو.. ويدنـو ..و...

ـ "نجوتَ... نجوتَ يا كافكا"

كانـت هـذه مـن الذئـب! الذئـب يتكلـم؟! ومـا المشـكلة.. ألسـنا في حلـم؟

لكن.. مَن هو كافكا؟

ومَن مانيسَّا؟

ومَن النبي يوسف؟!!

***

-٢-

- "أنت تتكلم؟... ما زلنا في الحُلم؟ أليس كذلك؟!"

يبتسمُ الذئبُ.. لو كان لي أن أقولَ شيئًا كهذا:

- "ربما الآن هي الحقيقة، وكل ما عشته في العاهرة كان الحلم"

- "إذن فأنت تتكلمُ في الحقيقة؟"

- "الحقيقةُ والحلمُ.. نسبيَّان جدًّا يا صديقي"

- "صديقك؟! كيف أكونُ صديقك بعد كلِّ المرَّات التي طاردتني فيها؟! وما هذه الدماء التي تخرجُ منك؟"

دماؤه.. كانت بيضاء هي الأخرى، لزجةً تُلوث جروحه التي أحدثها الدبُّ، قلتُ مبتعدًا عنه:

- "أنت مثله تمامًا، نفس الوحشية.. نفس الدماء، هل ستُهاجمني بغتةً؟ هل ستجلبُ أصحابك بعوائك هذا؟"

يبتسمُ من جديدٍ:

- "دماؤنا واحدةٌ، لكن ولاءنا مختلفٌ، برأيك يا كافكا، مَن الذي ناداك في كل مرةٍ كنتُ أطاردك فيها؟"

- "لا أعرفُ... ما قصدُك بهذا السؤال؟"

- "أنا يا كافكا! أنا من كنتُ أناديك، لأنني لم أكن أُطاردك، بل كنتُ أبغي إنقاذك"

- "لا أُصدِّق، ولا أدري شيئًا عن كافكا هذا، كنتُ أسمعك تُنادينـي بإيساف"

- "لأنك تظن أنك إيساف، بينما أنت كافكا.. محمود كافكا"

- "ماذا تنوي أن تفعل بي؟"

- "سأعيدك للخارج ثانيةً، لكن قبل هذا سأُريك ما قد يُفيدك، لماذا لا نغير لك ملاءتك الرثة هذه؟"

وفي نفس اللحظة، اختفت عني الملاءة وبدلًا منها وجدتني أرتدي ملابس فاخرةً أنيقةً، ثقيلةً تُدفئني.. نظيفةً جميلةً فعلًا:

- "كيف فعلتَ هذا.. و.. أتعرفُ؟ شعورُ الملابسِ على الجسدِ ممتازٌ! نائلة كانت على حق"
- "يُسمونه المعطف يا كافكا، ذاك هو نوعك المفضل من الملابس والآن.. لنتركَ هذا المكان المبارك"
- "المبارك؟... تعني هذا السجن؟"
- "ليس سجنًا كما أخبروك، هو مكانُ العبادة أصلًا!"
- "لا أفهمُ شيئًا... وما زلتُ لا أثقُ بك!"
- "ولماذا؟"
- "لأنك ذئبٌ!"

***

يَتَنَهَّدُ الذِّئْبُ

- "مظلومٌ أنا دومًا، منذ فعل أخوة يوسف فعلتهم وألصقوها بي"
- "لا أعرفُ عمَّا تتكلمُ.. لكنك ذئبٌ"
- "أتعرفُ أن البشر في عالمك، يتخذون من الدببة دُمى يُقدمونها لبعضِهم، كمثالٍ للوداعةِ واللطف؟ مع أن الدب أشرس مني بكثيرٍ، يأكلُ فريسته حيةً

ببـطءٍ شـديدٍ.. وتتجـاذبُ الدببـةُ طريدتهـا حتـى تتمـزقَ أوصـالًا وقِطعًـا؟"

- "لكنك ذئبٌ!"
- "خُلقتُ ذئبًا.. لا ذنبَ لي في هذا"
- "مهما قلت.. أنت ذئبٌ!"
- "سـأخبرك شـيئًا عجيبًـا، فـي عشـيرتنا، حيـن نشـتم بعضنـا بعضًـا، مـا هـي أسـوأ سـبة تتخيلهـا... يـا ذئـب! لا بالطبـع... بـل يـا بشـري!!"
- "أنتم الذئاب هكذا... منذ كانت ذات الجسد الأحمر!"
- "الواقـع أنهـا ذات الـرداء الأحمـر! لكنـك لا تعـرفُ أن فـي القصـة الأصليـة، شـاركت الفتـاة الذئـب فـي أكل جدتهـا!"
- "اكـذب كمـا تريـد.. فأنـت ذئـبٌ! تـأكل الأرانـب الصغيرة المسكينة!"
- "لا أكـذب، كمـا أن الأرانـب تكشـفُ لـي نفسَـها بسـخاء، وأنـا أحـب اللحـم! هكـذا خُلقـت!"
- "في النهاية تظل الذئبَ الشريرَ القاسي"
- "صدِّقنـي قـد أكـونُ ذئبًـا، لكننـي مـع حبيبتـي.. ذئبتـي، أصيـرُ أرق مـن غـزالٍ"

***

-٣-

- "لا أفهمُ شيئًا منك.. ولا أستطيعُ الوثوقَ بك، رغم أن هذا محض حلمٍ.. كله في رأسي"

يمدُّ الذئبُ إحدى قائمتيه الأماميتين إلى صدري كأنه يربتُ عليه، لم أبعد يده عني.. كأنني أعرفه رغم خوفي منه، كأنه مني، يقول باسمًا:

- "ليس معنى أنه يحدثُ في رأسك.. أنه ليس حقيقيًّا.. هكذا علمتنا رولينج.. أتذكرها؟"

- "لا أذكرُ شيئًا!"

- "ربما تذكرُ حين تعود، والآن دعنا نرى هذه المشاهد معًا، لن أفعلَ بك كما فعلوا، سنرى أحداثًا تمت بصلة لك أنت، عسى أن تنفعك فيما بعد حين تفهمها فهمًا صائبًا"

***

وفي اللحظةِ التاليةِ، اختفت الزنزانة، اختفى العالم كله إلا مني والذئب، وبدأت مشاهد جديدة تحلُّ محلها حولنا، كأنه عرضٌ مسرحي مُتقنٌ، كانت الصحراء ممتدةً أمامنا بلا حدودٍ، وبنظرةٍ للخلف وجدتُ سورًا وبوابةً والكثير من أسلاكٍ حديديةٍ شائكةٍ وملتفة، هناك برجان عاليان فيهما رجلان يرتديان ملابسَ ثقيلةً مبهرجةً، يختلطُ فيها الأخضر والبني والكاكي، ويقفُ كلٌّ من الرجلين خلف ما بدا كمدفعٍ معدني مصغرٍ جميلِ الشكل، تطوَّع الذئبُ بتفسير ما أراه دون أن أسأل:

- "هذه الملابسُ تُسمى الرداء المموَّه، وهذان الرجلان جنديان من الجيش، يُدافعون عن البلاد ضد غزو الأعادي، سترى الآن ما قصدته من اصطحابك لهنا، تصرَّف كما تُحب، لا أحد يرانا أو يسمعنا، تخيل أنك في عرضٍ مسرحي يجري دون اكتراثٍ بك"

ورأيتُ البوابة تُفتح، يخرج منها الكثير من الجنود، وقفوا أمام البوابة، يتعانقون ويبكون جميعًا، كل جندي يُعانق زميله بحرارةٍ ويبكي:

- "أهم ذاهبون للحرب؟"

سألتُ الذئبَ مستغربًا:

- "بـل هـم يُودعـون بعضهـم البعـض، فبعضهـم أنهـى مدتـه المطلوبـة كجنـدي فـي الجيـش، وهـم الآن يرحلـون عائديـن لبيوتهـم وعائلاتهـم"

وانتهى الـكلُّ مـن الـوداع، ورحـل مـن رحـل وبقـي جنـودٌ آخـرون، عـادوا إلى بوابتهـم يمسـحون دموعهـم:

- "تعالْ معي.. لذاك الجندي هناك"

قالهـا الذئـبُ وسـار خلـف أحـد الجنـود، يُشـبهني إلى حـدٍّ كبـيرٍ، تبعتـه متسـائلًا عـن قصـده، لكـن الجنـدي لم يفعـل شـيئًا، انتبـذ ركنًـا بجـوار أحـد المبـاني وانخـرط في بكائـه وعويلـه، لم ينقطـع لحظـةً عـن حزنـه، بـل زاد فيـه:

- "برأيك.. لِمَ يبكي؟"

سألني الذئبُ، فرددتُ بتلقائيةٍ:

- "ربما من أجل أصحابه"

- "بالفعـل.. هـو حزيـنٌ لفراقهـم، رغـم الأيـام الصعبـة التـي قضاهـا معهـم، لكـن مـا يُبكيـه بحرقـةٍ هكـذا؟ مـع أنـه يملـك إمكانيـة المراسـلة فيمـا بعـد، يُرسـل لهـم الخطابـات وربمـا يقابلهـم كذلـك".

- "تعني أن الأواصر لن تنقطع بينهم؟ "

- "إطلاقًا.. هم قادرون على لمِّ شملهم في كل مرةٍ بتلك الرسائل ولو أنها تستغرقُ وقتًا بين البلاد البعيدة"

- "ربما يبكي إذن لأن الرسائل تستغرق وقتًا!"

هنا ضحك الذئبُ:

- "أتعرفُ.. فيما بعد هذا العصر، ستكون الرسائل أسرع مما تتخيل، سيمكنك التحدث مع صديقك مباشرةً بمجرد أن تنوي ذلك، ولكن ذاك الجندي المشتاق لصحبه، سيبكي حتى في عصر الاتصالات السريعة والرسائل اللحظية!"

- "حقًّا.. ولماذا؟"

- "هذا ما أريدك أن تفكر فيه حين تخرج من هنا"

- "أخرج إلى أين؟"

- "ستعرفُ حين تخرج، والآن دعنا نُكمل جولتنا في الصحراء"

***

- "أترى هذا المشهد هناك؟"

أشار الذئبُ الرمادي برأسِه في اتجاهٍ ما، لم أرَ في البداية إلا ما ظننته شيئًا بُنِّي اللون بلا ملامح وسط الرمال اللا منتهية و..

- "قِطي... إنه قِطي المشمشي"

عرفته، كان هناك يمرحُ مع الظلال كما في حُلمي:

- "إذن فأنت تذكره، هل تعرف نهاية الحلم؟"

- "سيصيده الغرابُ، سيموتُ بين مخالبه"

- "لماذا لا نرى بأعيننا؟"

- "لا أحب رؤية هذا ثانية"

- "لا تسبق الأحداث يا كافكا!"

وبالفعل.. لمحتُ الغراب هناك، أعلى القط.. يرصده بتؤدةٍ، راح يقتربُ منه، يهبطُ كأنه أعظم الصقور... يبغي القط فريسةً سهلةً:

- "سيفعلها... لن أنظر!"

وأغمضتُ عيني بعصبيةٍ، لكن يد الذئب لكزتني برفقٍ:

- "أنظر فقط الآن"

ونظـرتُ في حـذرٍ، القـط... القـط الأريـبُ يلمـحُ ظـل الغـراب حـين دنـا منـه، ينظـر أعـلاه، يتوتـر.. تقـفُ شـعيراتُ فـروِه في تأهـبٍ، الغـرابُ لا يُبـالي، يُواصـل هبوطـه الكاسـح، لكـن القـط يثبـت رامقًـا عـدْوه مضيقًـا عينيْـه، رغـم اقـترابِ الغـراب أكـثر وأكـثر:

- "احذر!"

القـط لا يسـمعني، حتـمًا لا يفعـلُ عـبر هـذه المسـافة، لكنـه يعـرفُ مـا هـو مُقبـلٌ عليـه، فعلهـا في اللحظـة المناسـبة، وثـب وثبـةً هائلـةً، فـاردًا قوائِمَـه ذات المخالـب في إعجـازٍ، مسـتقبلًا الغـراب الـذي صرخ مـن المفاجـأة، وإذ بالقـط يقتنـصُ عـدوه، وإذ بالكابـوس ينقلـبُ حلـمًا جميـلًا:

- "لا أُصدِّقُ ما أرى"

القـط يهبـطُ بفريسـته، يعتليـه بقائمتيـه الأماميتـين، يقتلـه فـورًا صادحًـا بمـواء المنتـصر، يتركـه أخـيرًا.. زاهـدًا في أكلـه، عائـدًا إلى لعبـهِ ومرحـهِ:

- "إذن.. فهو لن يسرقَ مني قطي"

يُومئ الذئبُ برأسهِ ويُشير للغراب الصريع:

- "ليس هذا كل شيء، فالآن.. يأتي أخو الغراب ليدفنه مكانه"

- "يدفن أخاه؟"

- "هذا ليُعلِّم الإنسان دفن الموتى، انظر لهذين المتنازعين هناك"

وأبصرتُ رجلين شبه عاريَيْن، هاجم أحدهما الآخر بصخرةٍ عملاقةٍ ليُرديه قتيلًا، ويرمق القاتل ضحيته في صمت المذهول:

- "هذه أول جريمة قتلٍ في التاريخ، أتعرفُ لماذا يا كافكا؟"

- "أذكر شيئًا كهذا، قتله من أجل أنثى يتعبدُ معها لنفسه"

- "ليس بالضبط، فالواقعُ أن الأخ قتل أخاه طمعًا في امرأةٍ ليست له، امرأة جميلة وحسب!"

- "قتل أخاه من أجل هذا؟!"

- "وهل هذا شيء قليلٌ؟ إنه جمالُ المرأة يا صديقي! مِن أجله كتبتُ الأشعار وحكيت السير والأخبار، ومن أجله.. كانت أول جريمةٍ في التاريخ!"

***

ـ ٤ ـ

ـ "ما رأيك الآن أن نزورَ مسجدًا بحقٍّ؟"

قالها الذئبُ، وتغيرت الدنيا، وجدتني في مكانٍ فسيحٍ، يموجُ بالسكينة والوقار، أرضه سجَّاد أخضر عليه النقشة ذاتها تشير لاتجاهٍ واحدٍ، وهناك جسمٌ خشبي مُزخرفٌ بديعُ المنظر له درجاتٌ تنتهي بمكانٍ للجلوس، خلا المسجد بأكمله من الناس إلا ثلاثة نفرٍ، كانوا جلوسًا في أحدِ الأركان يستندون إلى الحائط الرخامي خلفهم، أشار الذئبُ إليهم فذهبنا نستمع، توسط الثلاثة شاب مليحُ الوجه، كث اللحية أخضر العينين، وحوله فتيان بدا أنهما يستشيرانه في أمرٍ ما، قال أحدهما:

ـ "يا شيخ.. لي عندك مسألة.. بل اثنتان"

قال ذو اللحيةِ:

- "تفضل!"

- "هل ينبغي خلع الخاتم عند الوضوء؟"

يتنحنح الشيخ ويقول في تؤدةٍ:

- "لا يجب عليك ذلك، يمكنك تحريك الخاتم فقط في الأصبع دون خلعه، وبهذا تُمرر الماء على موضعه في الأصبع، وفي نفس الوقت لا تضطر لخلعهِ"

يصمتُ الفتى قليلًا، ينظرُ إلى كيسٍ قماشي مُعلقٍ على الجسم الخشبي ذي الدرجات، كيسٍ مزخرفٍ وملونٍ برسوماتٍ زاهيةٍ جذابةٍ، وثمة كتابة عليه بلغة أهل الروم، يقولُ الفتى بسرعةٍ كأنه لا يرتاحُ لهذا السؤال:

- "يا شيخ... هل الرسم حرام قطعًا؟!"

- "رسم الحي من الكائنات، أما رسمُ الأشياء الجامدة فلا بأس، وقد لقي الإمام عليٌّ كرم الله وجهه رجلًا يعمل برسم الأشياء، فأشار عليه أن يترك هذه المهنة، فقال الرجلُ إنها صنعته التي يرزقه بها الله قوت يومه، فأمره الإمام أن يبتعد عن رسم البشر"

- "إذن فالرسوماتُ على هذه الشنطة حلالٌ يا شيخ؟"

وأشار الفتى للكيسِ القماشي، ردَّ الشيخُ بعد هنيهةٍ:

- "هـذه الشـنطة نسـيها أحـدُ المصليـن فـي المسـجد، لـذا نحتفـظُ بهـا هنـا لعلـه يراهـا يومًـا مـا"

- "ماذا عن الأشجار والنباتات بها؟"

- "لا بأس بها فهي ليست ذات روحٍ"

قال الفتى الآخر:

- "هناك فراشةٌ مرسومةٌ يا شيخ فماذا عنها؟"

هنـا صمـت الشـيخ ولم يـرد، واسـتأذن في الذهـاب، تـاركًا الفتيـان ينظـران لبعضهـما في صمـتٍ، قـال أحدُهـما أخـيرًا:

- "نسيتُ أن أسأل عن شيء آخر طرأ بذهني بالأمس"

- "أي شيء؟"

- "إذا سـمع المـرء أذانيـن للصـلاة فـي وقـتٍ واحـدٍ، فخلـف أي مـؤذنٍ يُـردد الكلمـات؟"

تَفكر صاحبُ الفتى قليلًا، ثم قال وهو يهمُّ بالقيام:

- "أرى أنه لا داعي لهذا السؤال"

- "وَلِمَه.. هل تعرفُ إجابته؟"

يمـدُّ الصاحـبُ يـده للفتـى الجالـس ليُسـاعده عـلى القيـام، ويقول:

- "اختر لك أذانًا منهما... وردِّد خلفه!"

أطـرق الفتـى حـين قـام.. ثـم أومـأ في تسـليمٍ، وبـدأ المشـهدُ يتغير، عُدنـا إلى الصحـراء ثانيـة، وقـد صـار الجـو ليـلًا دفيئًـا، تفـترشُ النجـوم السـماء وتكللهـا بأبهـى إكليـلٍ، بـدت في قمـة روعتهـا في هـذا الخـلاء، اطمأننـت قليـلًا إلى الذئـب، وجـدتُ يـدي تُمسـد عـلى رأسـهِ الناعـم وحدهـا، قـال لي:

- "أتذكر ما قيل لك عن الدين يا كافكا؟"

- "الدين؟.. تقصد أن الدين تدخين؟"

- "بالضبط... هل ما زلت تراه كذلك؟"

- "لا أدري... حقًّا لا أدري"

- "أتعـرف.. هـذا الوصـف يسـري علـى كثيريـن للأسـف، ومنـه يأتـي التدخيـن السـلبي"

- "السلبي؟... وكيف هذا؟"

- "أن يُصيبـك المـرء بدخانـه دون قصـدٍ منـه، أو بقصـدٍ، وقـد يُعطيـك التبـغ نفسـه لتدخنـه معـه فـي النهايـة، فهـل سـتقبل عندهـا؟"

- "يبدو لي أن كل ما عرفته في العاهرة.. هو أبطل الباطل، وفي هذه الحالة، ألا تكون قاعدة أن الدين تدخين كذبًا هي الأخرى؟"

- "هل أدركت حقًّا أن ما عرفته هناك كان أبطل الباطل؟ هل اقتنعت بشيء أخيرًا؟"

لم تصدر مني إجابةٌ لسؤال الذئب، لكني تذكرتُ الجملة الرومية على الكيس القماشي المُسمى الشنطة، كانت بديعة المعنى حين فكرت فيها الآن

Everything grows with love

***

-٥-

سألني الذئبُ مُقترحًا

- "هل نرى الآن الحلم الثاني؟"
- "تعني حلم الذئب.. والدب؟.. هل يُمكننا؟"
- "بالتأكيد.. دعنا نفعل هذا الآن!"
- "لا داعي لهذا!"
- "ولِمَ لا؟"
- "لا شك أن الدب سيقتلني، أو ربما يلقي بي في البحر"
- "حدث هذا حقًّا، رمى الدب بنفسهِ في البحر لتموتا معًا"
- "هذا يعني أن الدب كان ضدي منذ البداية، العاهرةُ كلها ضدي، في الحلم والحقيقة، لكني لم أدرِ إلا متأخرًا.. أليس كذلك؟"

- "دعنا من الحلم والحقيقة، دعني أريك هذا المشهد الأخير قبل عودتك يا كافكا"
- "اشتقتُ إلى عودتي هذه.. مع أني لا أعرفُ إلامَ سأعودُ!"
- "هم أيضًا اشتاقوا إليك، والآن.. ستعيشُ هذه المرة المشهدَ بنفسك، أنت بطله.. كمسرحيةٍ تمثلها، بعدها نلتقي لآخر مرةٍ يا محمود".

***

مصر المباركة، غنية بحقولِها الشاسعة، تلمعُ فيها سنابلُ القمح تحت الشمس الزاهية، أغلى من الذهب وأشهى من اللحم، فالقمحُ يعني الطحين.. يعني العجين.. يعني الخبز، وقد مضت سنواتُ الجفاف على خيرٍ، تم فيها ما خطط له العزيزُ بفضل الله العلي القدير، ثم بفضلِ عبده النبي الذي بارك به الأرض والعباد، النبي الكنعاني الأجمل من كل جميلٍ، يوسف بن يعقوب عليه أفضل الصلاة والسلام.

هكذا فكَّر إسحق بن حور بينما يمسحُ عرقه، مستريحًا تحت ظل نخلةٍ بعد العملِ الشاق في حقل القمح، أتاه من بعيدٍ صديقُه المُقرب يعقوب، يحملُ سلال الطعام

الشـهي، يُنـاول إسـحق سـلته ويخـرج الخبـز الطـازج والإدام الطيـب، يـأكلان في صمـتٍ يلاحظـه يعقـوب ويسـتثقله:

- "مـا بـك يـا إسـحق؟ أيـامٌ طويلـةٌ مـرَّت وفمـك عاكـفٌ عـن الـكلام، أراك مطرقًـا علـى الـدوام كمـن نزلـت بـه نازلـة، أخبرنـي يـا أخـي، علِّـي أسـاعدك أو أدعـو اللـه أن يُخفـف عنـك"

- "أسرحُ في ملكوت الله يا صديقي"

- "بـل تسـرح فـي بنـات حـواء! منـذ أمـرك أبـوك بالبحـثِ عـن زوجـةٍ مناسـبةٍ وأنـت سـاهم كأنـك تسـتعرضُ مـا خزنـت مـن صورهـن فـي عقلـك"

يضحكُ إسحقُ بشدةٍ، بينما يُبلل اللقمة بالخلِّ:

- "تعرفنـي كنفسـي يـا يعقـوب، أنـا فعـلًا سـارحٌ فـي هـذا الشـأن، لكنهـا واحـدةٌ فقـط يـا صاحبـي مـن تعنينـي، عندمـا أُفكـر فيهـا، أذكـر ملكـوت اللـه فـي الوقـت نفسـه، لأن كل جمـال الملكـوت قـد تمثـل فيهـا حتمًـا، هـي مثـالُ جمـالِ الخالـق القديـر فـي إمائـهِ"

- "حقًّا؟!.. مَن هي إذن؟"

- "أنت لم ترَها يا يعقوب"

- "صِفها لي إذن!"

- "أنا أيضًا لم أبصرها لمرةٍ واحدةٍ"

يرمقُ يعقوبُ صديقَه بامتعاضٍ:

- "أتهزأ بي يا أخي؟ سأدعك لخيالاتك العجيبة إذن"

وهمَّ يعقوب بالقيام إلا أن إسحق تمسَّك به:

- "على رِسلك يا صديقي، حاشا لله أن أهزأ بك"

- "وكيف تُحب امرأةً لم ترها؟.. أفقدت عقلك على كِبر! "

- "ليس الأمرُ كذلك، أعرفها لكني لم أرَها"

- "لا أفهم شيئًا، كيف عرفتَ أنها جميلةٌ إذن؟"

- "لأنها بنته يا يعقوب"

- "بنت من؟"

- "بنت النبي"

اتسعت عينا يعقوب للحظةٍ، كأنه لا يُصدق صاحبَه فيما يقول:

- "تقول بنت من؟"

- "بنت النبي يوسف".

***

- "فعلًا فقدت عقلك يا أخي! أترغبُ في بنت النبي يوسف؟"
- "أرغب فيها زوجةً لي، لقد سمُّوني باسم جد النبي كما سمُّوك أنت باسم أبيه، نحن جميعًا نُبجله ونُعظمه ونُحبه"
- "لأنه القائمُ بخزائن مصر، والأهم من هذا؛ لأنه نبي من الله للعباد"
- "وأنا أرجو مصاهرته، أيوجد في الدنيا صهرٌ أعظم من هذا؟"
- "بالطبع لا، لكن الجميلات كُثر، ولن تعدمَ جميلةً تجدها بدلًا من بنت النبي نفسها"
- "وهل هناك مَن هي أجمل من مانيسَّا بنت النبي أجمل البشر؟، ألم يأمرنا اللهُ أن نطمعَ في كرمهِ وعطائه؟"
- "لكنك تبغي الزواج منها لجمالها، والجمال يذوي مهما دام"
- "ومَن قال لك إنني أُفكر في حسنِها وجمالِها وحسب؟ بل هي أكمل النساء على الإطلاق، الحسب والنسب، سليلة الأنبياء يا صديقي، أهناك

مـن يُجابههـا فـي ذلـك؟ والمـال والغنـى، والأهـم مـن هـذا كلـه يـا يعقـوب، دينهـا وإيمانهـا، جـدْ لـي مـن يفـوق بنـت النبـي فـي دينهـا!"

- "كلامك أقنعني يا أخي، ولكن.."

- "ولكن ماذا؟"

- "أنت تريد، لكن أين أنت من كل هذا؟"

- "ماذا تعني؟"

- "أأنت جديرٌ ببنت النبي؟"

مالـت الشـمسُ إلى الغـروب، ونـادى عصفـورٌ صغـاره إلى المبيـت، ولم يجـد إسـحق مـا يُجيـب بـه صديقـه:

- "تعني أن.."

- "كلنـا نريـدُ بنـت النبـي، كلنـا نطمـحُ فـي هـذا، لكـن مـن فينـا يسـتحقه؟"

وأطرق إسحق من جديدٍ، وسالت دموعُه على خدَّيه:

- "إسـحق يـا صديقـي، لا أحـد منـا جديـرٌ ببنـت النبـي يوسـف، صدِّقنـي.. لا أحـد!"

***

وعـدتُ مـن إسـحق بـن حـور، إلى إيسـاف برصيصـة، بـل إلى محمـود كافـكا كـما يُخـبرني الذئـب.. ذئبـي، عُدنـا إلى زنزانـة المسـجد، تلـك الغرفـة المنقوشـة أرضيتهـا، قلـتُ للذئـبِ:

- "يُشبهني كثيرًا إسحق هذا"

- "يُشبهك في الطبع والغاية وليس في الشكل فقط"

أتأمـلُ المـكان حـولي، عشـتُ فيـه أصعـبَ لحظـاتي، لكـن الفـرجَ جـاء منـه أيضًـا:

- "لماذا أتيت بي إلى هنا؟"

- "لأنـه المـكانُ الـذي ظلمتـه كثيـرًا، وظلمـه الكثيـرون، سـتكون عودتـك منـه"

- "تعني أنني سأعودُ الآن؟"

- "هُـم بانتظـارك، ربمـا تعـرفُ الآن كيـف تعيـشُ حياتـك يـا كافـكا!"

- "أيمكنني أن أسألك عن شيء؟"

- "بالطبع.. أنا طوعُ أمرِك"

- "هل فاز إسحق ببنت النبي يوسف؟"

- "هذا ما لا أملك إجابته يا إسحق! "

- "أريد فعل شيء قبل أن أذهب"

- "أتود الاعتذار لنائلة؟"

- "ربما.. ولكني ما قصدتُ هذا"

- "إذن.."

- "قصدتُ هذا"

وسجدتُ على الفور، في اتجاه السجود المُحدد، سجدة طالت وطالت، أليس ما عرفته هو أبطل الباطل، فلا شك أن عكسه هو أحق الحق، قمتُ من السجود وذهبتُ تجاه الذئب، ما زال هناك شيء آخر، قلتُ له:

- "لكنني.. لم أعرفْ مَن أنت بالضبط"

- "انظرْ في عيني.. تعرفْ من أنا"

نظرتُ إليه مليًّا، لكنه أومأ باسمًا:

- "انظرْ عن كثبٍ في عيني.. وقلْ لي ماذا ترى"

ودنوتُ منه، ونظرتُ في عينيْه الواسعتيْن، توقعت أن أرى نفسي ولكن.. وجدتُ ذئبًا يُحدِّق بي! ذئبًا رماديًّا آخر.. يُشبه ذئبي، أفي عيون الذئب فقط.. أرى نفسي ذئبًا؟! هنا عانقته.. كقطٍّ أليفٍ لا أخشاه، وطفَت دموعي لانتهاء كل العذاب.. بسببه:

- "لـم أتوقـع يومًـا أنـي سـأعانق ذئبًـا، لكنـك أنقذتنـي فعـلًا"

- "أنا معك دومًا، أنا بانتظاركَ يا محمود"

***

الجُزْءُ الرَّابِعُ

صديق

– ١ –

ـ "مانيسَّا"

قالها محمود بنفسهِ، فاتحًا عينيْه يرمقنا:

ـ "محمود"

قالها الأب والأم في مزيجٍ من الشوقِ.. اللوعةِ.. الارتياحِ.. الحمدِ؛ راح الاثنان يُعانقانه ويُقبلانه، يُبللانه بدموع الفرح، لا يكفَّان عن حمد الله وشكره، يذكران اسم ابنهما بين التحميدة والأخرى، وقفتُ أنا بعيدًا أبكي في صمتٍ، النظرية نجحت إذن وتعبي لم يضع هباءً، أما محمود فظل يرمقُ الكون حوله بلا تعبيرٍ، نظر لي طويلًا ولم يقل شيئًا، رفع أبوه ظهره وأسنده إلى السرير فراح يرمقنا كأنها المرة الأولى:

ـ "أنتَ أبي؟.. وأنتِ أمي؟!"

سأل محمود أبويْه، فردًّا بالإيجابِ في دهشةٍ:

- "محمود... ألا تعرفنا؟"

- "لا أعرفكم"

نظر الوالدان لبعضهما في قلقٍ، قلتُ مُتجهًا للباب:

- "سأنادي الطبيب"

- "انتظر يا عبد الملك"

قالها الأب متراجعًا عن مكانه، مدَّ يده مصافحًا فمددتُ يدي إليه.. أخذ بيدي وألفيته يُعانقني بقوةٍ:

- "سامحني يا بُني.. سامحني أرجوك!"

ونظر لي، تملأ الدموع عينيْه:

- "لا بأس يا عمي... لا بأس أبدًا"

وأخذ يدي إلى محمود سائلًا:

- "ألا تعرفه يا محمود؟"

- "لا أعرفه"

تقول الأم ودمعها لا ينقطع:

- "هذا مَن أنقذك يا محمود.. مَن أعادك إلينا"

- "أنت أخي؟"

يسألني محمود، فيجيبُ أبوه:

ـ "بل هو صديقك يا محمود.. أوفى صديقٍ لك"

ـ "صديقى هو من أنقذني ؟!..لا أصدق !"

***

وأتى الطبيبُ وراح يسألُ محمود أمامنا:

ـ "٥ × ٦ بكام يا محمود؟"

ـ "ثلاثين"

ـ "عاصمة فرنسا؟"

ـ "ما هي فرنسا؟"

ـ "أين نحن الآن؟"

ـ "لا أدري"

ـ "أتعرف اسمك الكامل؟"

ـ "محمود كافكا"

ـ "اسمك، وليس اسم الشهرة؟"

ـ "هذا اسمي الذي أعرفه، كما أخبرني الذئبُ"

ـ "الذئب؟!.. ومتى أخبرك الذئبُ؟"

- "في الحُلم، قبل أن آتي إلى هنا"
- "كنتَ تحلمُ بالذئب؟"
- "حلمتُ بالذئب، وقال لي إنني سأعودُ"
- "ألم يُخبرك بشيءٍ آخر؟"
- "أخبرني عن بنت النبي يوسف"

***

-٢-

عـاد محمـودُ إلينـا صفحـةً بيضـاء، كـما يحـدثُ لمـن يجـري عمليـةً جراحيـةً في المـخ، لا يعـرفُ الكثـير عـن عالمنـا وإن ذكـر أن حيـاةً كاملـةً كان يعيشُـها في غيبوبتـه، لم يحلـم بشـيرلوك هولمـز ومثلـه مـن أبطـال الخيـال كـما ذكـر صديقـه أحمـد جميـل، بـل عـاش في عـصرٍ عجيـبٍ وبقوانـين أعجـب، زمـنٌ غابـرٌ مـا زال يُضـاء بقناديـل زيـت الحـوت وتُسـمى فيـه الميكانيـكا بعلـم الحِيـل النافعـة، حـوى الحلـم تفاصيـلَ حميمـةً توترنـا جميعًـا لسـماعها، في رقـودِه الـذي لم يُناهـز الشـهر قـضى محمـود سـنين مديـدةً وشـهد طفولـةً وشـبابًا، فالزمـنُ لا اعتبـار لـه في الأحـلام كـما أخبرنـا الأطبـاء، ذكـروا كذلـك أن هـذا العـالم يُعـبر عـن العقـل الباطـن لصاحبـه، دواخـل محمـود في أعمـق أعـماق عقلـه، لكنـي كنـتُ أفهمـه أكـثر مـن أيِّ شـخصٍ آخـر، سـمعتُ منـه القصـة كاملـةً مـراتٍ عـدة بمفـردي، وقارنتهـا بمـا عرفتـه عنـه مـن التحـري والبحث.

كل ما رآه محمود له شبيهُه في التاريخ بالفعل، خاصة العبادات الإباحية وتفاصيلها، منذ كانت احتفالات الخصوبة لدى الوثنيين، وحتى الآن تقرُّ بعض الأديان هذا النوع من التعبد، اللذة الجسدية لرضا الرب، قد يكونُ هذا خيرَ دليلٍ على نظرية الوجدان الجمعي، أي أن حلم كافكا الطويل لم يكنْ سوى ذكريات أجداده مجتمعةً منذ أغبر العصور، أو ربما هي خبراته وقراءاته التي تحوَّلت لقصةٍ طويلةٍ عاشها، بالفعل زار محمود الكثيرَ من الأطباء ودرسوا حالته بدقةٍ، كما أجرى أحدُ الصحفيين حديثًا معه خاصة أنه الأول على دفعته، بل الأول في تاريخ الكلية في ٣ ميكانيكا إنتاج!.

لكنه احتاج لخمسة شهور كاملةٍ كي يعتادَ عالمَه الجديدَ وينسى الحياةَ التي عاشَها في (العاهرة)، وأبطال حُلمه الذين حملوا أسماء الزَّانين والخائنين وأشرار التاريخ بخلافِ صاحبيْ سجنه! كان يذكر حياة الحُلم كذكرى ضبابيةٍ رغم كل شيء، نشرحُ له تفاصيل العالم الحقيقي كأنه طفلٌ صغيرٌ يكتشف الدنيا، وهنا كانت الحلقةُ المفقودةُ، لماذا لم يرجع محمود إلينا بكامل ذاكرته؟ هل فقدها أصلًا قبل الغيبوبة؟ لم ينشغل الأبوان بهذه الأسئلة وإنما تفرَّغا لعلاجِ ابنهما الذي عاد بعد غيابٍ، كان محمود مُتجاوبًا مع عالمه الأصلي كذلك، سهل التعلم، ويسعد بكلِّ فضيلةٍ

يراها بعد عُهرِ العاهرة! يتفاعلُ مع الناس بسلاسةٍ مثل أصدقائه القدامى وأقاربه، وخاصة أنا حيث تقرَّبتُ منه أكثر وصرتُ مُرشده الأول، يسألني دومًا عن طريقتي التي اتبعتها لإنقاذه، ويسألني أبواه عن حكاية كلمةِ مانيسَّا، لكنني أصمتُ مُفضلًا الانتظار حتى حينٍ.

وبالفعل وجدتُ في النهاية شيئًا، أزاح الكثيرَ من الضباب، لن أخبرَ محمود عن بحثي واستنتاجاتي، هو من سيُخبر نفسَه بنفسِه.

***

لستُ عبقريًّا، بالتأكيدِ لستُ كذلك، لكني فقط طوعتُ خيالي في البحث، فكرت بعقليةِ كونان حين يحلُّ ألغازه، كل شيء مُمكن، والنت عضَّد فكرتي، ولم ينقصني إلا التجربة، وحين أجريتُ التجربة، أتت أكلها ولله الحمد، هكذا فكرتُ بينما أسلكُ الطريقَ نحو مُدرج ٢٢٤ حيث ينتظرني محمود، عاد إلى جامعته بعد الإعدادِ اللازمِ، كان مُسالمًا مع زملائهِ في العام الدراسي الأخير، يرتاحُ لقدرِ الاحتشام الذي يراه، يستقبلُ الهندسةَ بشغفٍ حقيقي، مذهولًا بكلِّ التطور الذي بلغ العلمُ بجوار ما درسه من حِيَلٍ نَافعةٍ.

صعـدتُ السـلالم مُسرعًـا، راغبًـا في لقـاء محمـود بـأسرع مـا يُمكـن، كي أعـرضَ عليـه كَنـزي الـذي وجدتـه، يُمكننـا الآن أن نُصلـحَ كل شيء يـا صديقـي، دخلـتُ المُـدرج الصغـير، كان خاليًـا إلا منـه، فالمحـاضرةُ انتهـت منـذ ربـع سـاعة، ألفيتـه جالسًـا عنـد حـرف البنـش، في مكانـه المفضـل كـما أخبرتـه، يـشربُ شـايًا في كـوبٍ ورقـي ويُطالـع كتابًـا مـا، رآني فابتسـمَ بـودٍّ، ذهبـتُ إليـه وصافحتـه مُقبـلًا وجْنتيْـه:

- "أوحشتني يا صديق"

- "أنت أكثر"

- "كيف تجدُ مُتسعًا من الوقت لتراني كل أسبوع؟"

- "قلتها بنفسك! مـن الصعـب ألا أجـد سـاعتين لصديقـي كل أسـبوع! أو علـى الأقـل.. خمـس دقائـق لمكالمـةٍ هاتفيـةٍ.. أليـس كذلـك؟"

يبتسـمُ في امتنـانٍ، مـا زال يرمـقُ الدنيـا بدهشـةٍ كطفـلٍ حائـرٍ، رغـم كل مـا تلقـاه مـن معرفـةٍ عـن العـالم، كل هـذا يُمكـن أن ينتهـي الآن، وهـو مـن سـيُقرر، غمزتـه مُبتسـمًا أشـير للشـاي:

- "شاي بالياسمين؟"

- "وجدتُ نفسي أحبه كثيرًا!"

وأمسكتُ الكتابَ لأرى عنوانَه:

- "السيرة النبوية للصَّلابي.. جميل، وجدتَ نفسَك تُحب القراءة كذلك؟"

- "كما كنتُ هناك في الغيبوبة، أتعرفُ.. كنتُ أقولُ لنفسي، فلأغتنِ بكعوبِ الكتبِ عن كعوب النساء!"

- "فعلًا.. هذا خير اغتناء! لكن إياك أن تفعلَ ذلك حرفيًّا!"

- "من السهل فعل هذا لو أردت، الكتب للأسف تعجُّ بالكعوبِ وما هو أسوأ.. أو أفضل!"

ضحكنا كثيرًا، تعوَّد محمود عالمه الجديد فعلًا، بل لعله أدرك أنهما- العالمان- نفس العالم بشكلٍ ما، سألته:

- "أخبرني ثانيةً يا كافكا، هل الناس في العاهرةِ كانوا... بالكامل؟!!!!"

يضحكُ محمود بإشراقٍ:

- "كالحيوانات تمامًا!"

- "بالعكس.. ملابس الحيوانات هي الريشُ والوَبر وخلافه، أما نحن البشر فقد ترك لنا الله اختيار

ريشـنا بأنفسِـنا! ومـاذا عـن الشـتاء؟.. ألا يُوجـد عندهـم بـردٌ وصقيـعٌ؟"

- "كان صيفًا لا ينتهي"

- " winter is not coming !!"

- "بالفعل!"

يسألني محمود للمرةِ الألف:

- "عبد الملك... لماذا حلمتَ بي؟"

وأصمتُ ناظرًا إليه قائلًا بصدقٍ:

- "ألا يقولـون إن الأرواح تتلاقـى فـي الملكـوت؟ لا تفسـيرَ لـديَّ غيـر أن رُوحيْنـا لهمـا نفـس الرنيـن resonance !"

- "عرفـتَ نظريـة الرنيـن؟!.. تـدرس الهندسـة أيضًـا يـا عبـده سـان!"

- "هـذا مـا قرأتـه عـن هـذه الظاهـرة، لسـنا أول مـن يـرى أحـلام الآخر"

- "حمـدًا للـه أنـك رأيتنـي فـي الحلـم.. فتحركـتَ وأنقذتنـي"

- "عرفـتُ أنـك تُنادينـي... وجـدتُ نفسـي أتحـرَّى مُتذكـرًا كلامـك عـن كونـان! لكـن... أتعـرفُ؟ أنـا متأكـد أن أيَّ صديـقٍ لـك كان سـيفعل الأمـر ذاتـه لـو حلـم بـك"

بـدا غـير مقتنـعٍ، لكنـه هـزَّ رأسَـه بمعنـى أن كلامـي قـد يكـونُ عـلى شيء مـن الصحـة، أتأمـل الأفـقَ عـبر نوافـذ المُـدرج، أتحـضَّر لمـا سـأقولُ:

- "محمـود... ليـس الحلـم المشـترك هـو الشـيء الأعجـب بقصتنـا، فأنـت سـألتني مـن قبـلُ كثيـرًا، كيـف عرفـت أن إنقـاذك بكلمـة مانيسَّـا حيـن أسـمعتك إياهـا فقـط"
- "بالفعل..أتمنى أن أعرف"
- "ألا تسـعدُ فـي حياتـك الآن؟ أترغـب فـي النبـش فـي ماضيـك؟"
- "أخبرتنـي أننـي عانيـتُ كثيـرًا مـن قبـل، لكنـي أحـبُّ أن أفهـم، مـا الـذي فعـل بـي هـذا، لمـاذا ذهبـتُ فـي غيبوبـةٍ طويلـةٍ هكـذا؟"

أتنهـد رامقًـا صديقـي، أخـرجُ مـن حقيبتـي التابلـت الـذي قـرأتُ مـا فيـه مـراتٍ لا حـصر لهـا منـذ الأمـس، أقـول لمحمـود:

- "يقولـون إن الكتابـة نتيجـةٌ معروفـةٌ للقـراءة، أن تقـرأ كثيـرًا يعنـي أنـك سـتكتبُ حتمًـا"

أمدُّ يدي إليه بالتابلت فيأخذه:

- "بالأمس فقط، فكرتُ في البحث من جديدٍ باسمك على النت، لكن باليابانية هذه المرة، هنا وجدتُ مُدونة باسم ياباني، لذا ليست مشهورةً ولا يزورها أحدٌ، المدونة كانت كبيرةً جدًّا حوت فصولًا عامةً عن كل شيء، لكني وجدتُ عناوين مميزةً مألوفةً لي بالذات عنك، جنس.. صداقة.. موت.. حب، شككتُ في الأمرِ فقرأتُها، اتضح أن المدونة تخصك، محمود العاشق للعزلة أبى إلا أن ينعزلَ على النت كذلك، قرأتُها كلها مراتٍ عديدةً، عرفتُ أن بحثي كان صحيحًا، عرفتُ ما شغل بال محمود كافكا بضراوةٍ في أحلك عصورِه، ووجدتُ فيها كل ما فعله ليعالجَ نفسَه، ليعوِّضَ ما فاته من الدراسة"

راح محمود يُمرر أصبعه على شاشة التابلت غير مُصدقٍ:

- "وماذا كان اسم المدونة باليابانى إذن؟"
- "カフカトン!!" (١)
- - "هكذا!"
- - "سأدعك الآن لتقرأ وتفهم، سأحضرُ كوبًا من الشاي ريثما تنتهي "

***

(١) カフカトン تُنطقُ باليابانيةِ... كافكاتوون!

الجُزْءُ الخَامِسُ

المُدَوَّنَةُ

ما عُدت أحتملُ، طفح كيْلي وما عاد في القوْس مَنزعٌ، بكلِّ تعبيراتِ البلاغة والأدب.. نفد صبري، أين الخلاصُ من كل ما أقاسيه وأعانيه؟ كل الظروف تحالفت ضدي، كل مشكلاتي عادت معًا لتهزمني، أنا الذي عانيتُ منها كما لم يُعانِ أحدٌ، أهذا مرضٌ أم وهمٌ؟ أجلدي رقيقٌ إلى هذا الحدِّ؟ أم أني محضُ مخبولٍ؟

الجنسُ.. الحُب.. الموتُ.. الصداقةُ، كلها جاءتني تبغي رأسي، وأين أنا الآن من السلام النفسي؟ أين أنا من راحة البالِ وهناء الحال؟ ها هي ذي النتيجة.. رسبت في مادتين، ولا أدري كيف أُخبر أهلي، غير أنني عبرتُ مواد ثلاثة بقواعد الرأفة، لولا هذه الرأفةِ لأعدتُ السنة من جديدٍ، أنا؟.. أعيد سنةً كاملةً؟

مَا هذا الجَحِيمُ؟

وهل للخروجِ من سبيلٍ؟

***

فكرتُ كثيرًا في المخرجِ من جَحِيمي هذا، ولم أجد حلًّا سوى أن أتغير، وكيف لي بالتغير؟ كيف لي بالعودةِ كما كنتُ؟ قبل أن يفعلَ بي الجنسُ وأخواته ما فعلوا؟ أحتاجُ

إلى سحرِ هاري بوتر، أحتاجُ إلى تعويذةِ النسيان كي أنسى.. كما كنتُ ناسيًا من قبل..

أنسى أجسادًا شبه عاريةٍ تفتنني في كلِّ شارعٍ وشاشةٍ وصفحةٍ..

أنسى غرائز دفينةً تُعذبني..

أنسى حبيبةً لم أستطع حبها!

أنسى صديقًا نسيني ولن يذكرني..

أنسى موتًا أخذ قريبتي.. وسيأخذني ويأخذُ كل قريبٍ وغالٍ..

أنسى الحبَّ..

أنسى الصداقة..

أنسى الموت..

أنسى الجنس..

***

لكني لم أنسَ شيئًا، أمنيةٌ مستحيلةٌ هي، كيف أنسى ما لا سبيل إلى نسيانه؟ كيف أحيا دونهم بعدما عرفتهم؟ وبعدما ذهب من أنساني إياهم؟ لم أستطع العيشَ بمحض

نيـة النسـيان، لأننـي لم أبلـغ هـذا لوهلـةٍ، لـذا سأسـعى إلى ذلـك سـعيًا، سـأنسى كل هـذا، سـأنسى قـسرًا وإجبـارًا، لكـن كيـف؟

ألا أجـدُ طريقـةً مـا؟ أمامـي شـهورُ العطلـة الصيفيـة بأكملهـا، أمامـي الإنترنـت بأكملـه، هـل يمكـن فعـل هـذا حقًّـا؟ بسـحرٍ مـا.. بتماريـن روحيـة معينـة.. يوجـا أو أي شـبيهٍ، تعويـذة نسـيان هـاري بوتـر تلـك.. ألا أجـدُ لهـا شـبيهًا في الواقـع؟ أحتـاجُ النسـيان الخـام.. التـام.

سأبحثُ وأبحثُ ولن أملَّ البحثَ لحظةً، حتى أنسى...

***

قضيـتُ أربعـة شـهور في البحـث، وأخـيرًا وجـدتُ طريقـة، وجدتهـا حقيقـةً واقعـةً بخطـوات عمـل وملاحظـة واسـتنتاجٍ كـما كنـا نـدرس تجـارب العلـوم، يقولـون إن التنويـم المغناطيـسي مـن السِّـحر، تبـدو الطريقـةُ التـي سـأتبعها سـحرًا بالفعـل، لكـن هـذا لـن يحجمنـي عـن خطتـي، سـأنسى مـن أجـل مسـتقبلٍ أفضـل، سـأنسى مـن أجـل أبي وأمـي، سـأنسى مـا لا بـد مـن نسـيانه حتـى تسـتمرَّ حيـاتي.

وأعـددتُ كل شيء، فقـد فكـرتُ مـرارًا وتكـرارًا في خطتـي، سـأنسى مشـكلاتي الأربـع، لكنـي أعـرفُ أن النسـيان التـام

سيجعلني نسيًا منسيًّا! سيحطمني ولن يجعلَ مني إنسانًا؛ فكل شيء من الأشياء الأربعة هو قطعة من روحي، الجنسُ مثلًا، خبراتٌ كثيرةٌ ومعارفُ أكثر تُحيط به، هل سأعودُ مرةً أخرى لأسألَ غيري: كيف أتيتُ إلى هذه الدنيا؟!! هل سأسألُ عن معنى الصداقة المجرد ولن أعي معنى أن فلانًا صديقي؟! أو أن شخصًا ما مات.. أو أني أحب أبي وأمي؟

سأحتفظُ من كل شيء بما أحتاجه فقط للعيش، سأنزعُ ذراعي لكني سأبقي على أصابعي! لا يبدو التشبيهُ معقولًا.. لكن حياتي الآن ليست معقولةً هي الأخرى.

لهذا سأنسى مع الاحتياط لكل هذا، خططتُ أن يبقى المعنى الأصلي في رأسي، إذ كتبتُ منه ما أحتاجُه فقط في ورقةٍ دسستها في مصحفي، كل شيء مكتوبٌ مع مرادفاته المحتملةِ التي سأسمعُها في حياتي اليومية، إليها سأنظرُ كلما احتجتُ إلى تذكر ما نسيتُه، هذا النزْرُ اليسيرُ سيُعوض الفجواتِ الهائلةَ في عقلي وإدراكي للأمور، سيكون علمًا ينفعُ وجهلًا لا يضرُّ.

أما الخبرةُ الكاملةُ التي وصلت إليها بأعوامِ عمري كله عن المشكلاتِ الأربع والتي أودُّ الخلاص منها، فلن أخسرَها أيضًا ولن أقلقَ بصددِها، فالسحرُ يسمحُ لي

بالعـودةِ كـما كنـتُ، لا يحتـاجُ الأمـرُ أكـثر مـن الوقـوفِ أمـام المـرآةِ وترديـد كلمـة الـسر ثـلاث مـراتٍ عـلى مسـامعي، عندهـا يعـودُ عقـلي كـما كان طبيعيًـا تمامًـا قبـل النسـيان، اشـتريتُ خاتمًـا و كتبـتُ داخلـه كلمـة الـسر، هـي مناسـبةٌ جـدًّا لهـذه الخطـة، واسـتعضتُ عـن المـرآةِ بتطبيـقٍ يجعـلُ خلفيـة هاتفـي كالمـرآةِ عـن طريـق الكاميرا الأماميـة، سـتكونُ مـرآتي معـي في كل وقـتٍ مـا احتجـت إليهـا، والعـودةُ مضمونةٌ في كلِّ حـينٍ.

***

الآن أسـائلُ نفـسي كثـيرًا قبـل فعلهـا... هـل أعـي حقًّـا مـا أنتـوي فعلـه؟ أنـا الآن في طريقـي لحـذفِ قطاعـاتٍ كاملـةٍ مـن ذاكـرتي بطريقـةٍ هـي إلى السـحر أقـرب، أربعـة أشـياء.. أربعـة أمـور، صـارت أربـع مشـكلاتٍ تُؤرقنـي.. تقـضُّ مضجعـي.. تـدكُّ بـالي، كيـف سـأضحِّي بعدمـا أُزيلهـا تمامًـا إلا أقـل القليـل، أحتفـظُ بالقواعـد فقـط بينـما أقـوِّض صروحًـا مهمـةً في وعيـي وذهنـي وكينونتـي؟

وهـل أنـا وحـدي الـذي تـأذَّى وعـانى مـن أمـورٍ كهـذه؟ حُـب مسـتحيلٌ.. وصديـقٌ خائـنٌ.. وأحبـابٌ يموتـون.. وغرائـز حاميـةٌ؟ لسـتُ الوحيـدَ حتـمًا، لكنـي الأشـد في الأذى والـضرر،

جروحي ثخينةٌ وألمي شديدٌ، بل إني لا أجدُ لنفسي عيشًا وسط هذا العذاب، أنا مغلوبٌ على أمري.. أنا مُضطرٌّ.

بل إن عقلي ليغريني بالتفكير بشكلٍ آخر، ماذا عن النسيان وماهيته من الأصل؟ فحتى دون هذه التجربة العجيبة، أنا أنسى بطبيعتي أكثر من اللازم، أنسى البرَّاد على النار، أنسى إيقاظ أمي في الموعد كما طلبتْ مني، أنسى تناول العلاج في أوقاته! أنسى مكان مفتاح البيت، أنسى بضراوةٍ.. نسيانٌ مَرَضي مخيفٌ.

بل إني كنتُ أنسى أمورًا أخطر، ذنوبي وخطاياي التي ارتكبتها، أخطائي التي أكررها مرارًا.. لأنني نسيتها! مواقف الآخرين معي التي على أساسها سأعاملهم، معلوماتي في الهندسة التي تهمني أكثر من كل شيء آخر، لماذا أنسى قوانين الموائع ولا أنسى أحداث هاري بوتر؟ لماذا أذكر التفاصيل الحميمة وأنسى أحداث السيرة؟.

كان النسيانُ حاضرًا في عالمي ربما أكثر من أي شخصٍ، وعانيتُ مثالبه كثيرًا، لكن مشكلتي ليست أنَّني أنسى، بل مشكلتي أنني أنسى أنني أنسى! وأعود مرةً أخرى إلى نسياني، ولكن.. الآن فقط سأوظف النسيان كما ينبغي، سيكونُ النسيان حليفي وليس ضدي، لماذا أنسى كل شيء إلا مشكلاتي؟

سلْ أي إنسان عما يحب أن ينسى لو أتيحت له الفرصة، وسيتلو عليك قائمةً طويلةً معروفةً، أنا كذلك.. أنا صُدمت بشدةٍ وعلاجي الوحيدُ هو النسيان، ولا أستبعدُ أبدًا أن الطب الحديث قد توصَّل لتقنيةٍ طبيةٍ ما تُنسي المرءَ ما يرغبُ بنسيانه، لكن شيئًا كهذا ربما أجده في بلدٍ كاليابان فقط! فمن أين لي بتكاليف النسيان الياباني (الحديث)! سأفعلها كما عرفتها.. سحرًا أو غيره، ما من طريقٍ آخر.

سامحني يا ربي، واكتب لي نجاحًا لخطتي، وملاذًا من عذابي.

***

حانت اللحظةُ المناسبةُ أخيرًا، ما من أحدٍ في البيت، المرآة أمامي، الظلام طاغٍ إلا من شمعتين عن يميني ويساري، الأوراقُ في يدي، والهاتف الذي سيكونُ جهاز التسجيل الذي يُملي عليَّ الأوامر، أكتبُ هذه الكلمات قبل الشروعِ في التنفيذ، تهتزُّ يدي بشدةٍ ويجفُّ حلقي، هل أتراجعُ؟.. هل أتقهقرُ بعدما غزت جيوشُ اليأسِ كل قلاعي؟ لماذا يكتنفني هذا الشعورُ بالذنبِ؟ وكأنني أرتكبُ جريمةً في حقِّ نفسي؟

جريمة؟.. أية جريمة؟ الجريمةُ هي أن أدعَ نفسي تهوي دون التشبث بأي أملٍ ينقذني، الآخرون يُعاقرون الخمرَ لينسوا، يتعاطون المخدرات أو يزنون، أنا لن أفعلَ مثلهم، سأنتهجُ طريقتي الخاصة للنجاة، يخطرُ لي سؤالٌ منطقيٌّ مُهم:

ـ "لماذا لا تنسى وسط زحام العمل والكدح كدَيْدَنِ البشر؟"

لا عمل.. لا كدح أو بذلًا لمجهودٍ، ما دامت تلك الأغلال تُكبلني، وإذا حاولت المشي تعرقلني، سأنسى أحزاني.. سأنسى ما ينبغي نسيانه.

***

انتهيتُ لتوِّي، رأسي يؤلمني قليلًا، لا أشعرُ بشيء سوى الخواء التام، بمعنى آخر... لا شعور من الأساس، لكن ماذا عن سلامي الداخلي وصفاء سريرتي؟ عقلي كقرصٍ صُلبٍ تمت تهيئته format من جديدٍ، ذهني أصفى من الماس، ماذا أردتُ أن أنسى؟ لحظةً.. سؤالي هذا يعني أنني نسيتُ!

سأقرأ الآن ما كتبته في الورقةِ عسى أن أتذكر، الجنس... الحب.. ما هذه الأشياء؟ لا أعرفُ عنها شيئًا!

***

بـدأتُ العـامَ الـدِّراسي كأفضـل مـا يكـونُ، أصعـب المـواد لا تُمثـل لي أكـثر مـن مسـائل جمـع و طـرح بدائيـةٍ، ذهنـي يقبـلُ كل شيء ولا يشـكو لحظـةً، أيـن كانـت هـذه الروعـةُ مـن قبـل، مـا الـذي كان يشـغلني هكـذا؟ مـا تلـك المـواد البلهـاء التـي رسـبتُ فيهـا في العـام المـاضي؟! لـنزَ الآن مـا كنـتُ أحـاولُ نسـيانَه، الجنـس.. الحـب.. الصداقـة، يـا للسـخافة! بالأمـس اتصـل بي صديـقٌ قديـمٌ ولم أعرفـه مـن الأسـاسِ! لعلـه الصديقُ الـذي نسـيتُ الصداقـةَ مـن أجلـه أصـلًا!

***

محمـود كافـكا يتكلـم، وقـد صـار الأول عـلى الكليـة بـلا منـازعٍ، مـرَّت اختبـاراتُ نصـف العـام عـلى خـيرٍ، بـل عـلى كلِّ خـير، وحـين ظهـرت النتيجـةُ كانـت أكـبر دليـلٍ عـلى نجـاح الخطـة، غـير أننـي صرتُ أنـسى أكـثر مـن الـلازم، زادت نظـراتي في الورقـةِ إياهـا متحججًـا بأننـي أحفـظُ القـرآن بـأسرع وقـت، هـل يعنـي هـذا شـيئًا؟ هـل تأثـر عقـلي بالتجربـة وصـارت ذاكـرتي متطايـرةً كذاكـرة الحاسـوب قصـيرة المـدى RAM !

مـا حاجتـي أصـلًا إلى تلك الأشـياء؟ أنـا الآن في أوج انطلاقي ومسـتواي العلمـي والعمـلي، أنـا لا أفكِّـر في شيء مـما بتلـك الورقـة، وقتـي كلـه للمذاكـرة وحسـب، أليـس مـن الأفضـل

لنا أن ننسى ما يُؤذينا ويُعذبنا، أليس النسيان نعمةً من خالقنا؟ حتى إنني فكرتُ في إضافة أشياء أخرى لأنساها إلى الورقةِ، أشياء من الجيد نسيانها... العرب وفلسطين! ومعهم سوريا وبورما طبعًا، لكنني لم أتخذ قراري الأخيرَ بهذا الشأن، على كلِّ حالٍ ما زال معي خاتمي وكلمة السر، أستطيعُ العودة في أي وقتٍ لنقطة البدء.. لكن ليس الآن.. ليس الآن.

فالآن قد أصيرُ مَلِكَ العالم كله، بمحضِ نسيان منغصاتِ حياتي!

***

اليوم ضاع مصحفي، نسيته في المسجد لو أردنا الدقة، زاد نسياني للكثير من الأشياء بخلافِ الدراسة، حتى إنني نسيتُ اليومَ رقم الحافلة التي أستقلها إلى منزلي، يُمكنني العودة الآن لحالتي الأصلية بالكلمة على الخاتم ومَن ثم كتابة ورقة أخرى، لكن لا داعي لهذا، امتحانات آخر العام دنت بشدةٍ، فلأنس ما أردتُ نسيانه!.

***

ينقصُني امتحانٌ واحدٌ وينتهي العامُ بأكمله، مشكلةٌ واحدةٌ حدثت الآن، فقدتُ خاتمي الذي به الكلمةُ دون

قصـدٍ أثنـاء الوضـوء، هـذه المـرةُ دون قصـدٍ فعـلًا، لأننـي حاولـتُ التخلـصَ منـه كثـيرًا مـن قبـلُ، لرغبتـي في نسـيان كل ذكريـاتي المزعجـةِ دون رجعـةٍ، وفي كل مـرةٍ أعـودُ لأسـترجعه مـن جديـدٍ، ضـاع الخاتـمُ الآن.. بـلا رجعـةٍ، ولكـن فلأنـسَ هـذا الآن، المهـم هـو الامتحـانُ الأخـيرُ فقـط..

***

أنهيـتُ العـام، لكننـي انتهيـتُ، لا أعـرفُ كيـف أعـودُ لحالتـي، هـل هـذا مهـم؟ لا أظـن، سـأعيشُ الآن حيـاتي ولـو ناسـيًا، صحيـحٌ أننـي لا أسـتطيع فهـم الكثـير مـن الأمـور، وكنـت أعتـزلُ العـالم كلـه بحجـة المذاكـرة، والآن مـع انتهـاء العـام.. مـا حجتـي؟ لكننـي الآن أفضـل مـن ذي قبـل، رغـم كل هـذا، أنـا لا أعـاني آلامًـا مـن أي نـوعٍ، وينتظـرني نجـاحٌ باهـرٌ، فلأعـشْ بـأي طريقـةٍ إذن، لا بـأس.. لا بـأس.

***

لكننـي مـا زلـت أشـعر بالضيـاع.. بالتيـهِ وسـط أعقـد متاهـةٍ، لا أدري مـاذا أصابنـي، فكـرتُ بالعـودةِ إلى المسـجد والبحـث عـن المصحـف، لا أحـدَ سـيأخذه بالطبـع، سـيبقى مع المصاحـف الأخـرى، بالفعـل وجدتـه... شـكله مميـز ولكـن... لم أجـد الورقـة بداخلـه، مـا العمـل الآن؟ ليتنـي كتبـتُ ورقـةً

أخـرى.. ليتنـي احتفظـت بكلمـة الـسر في مـكانٍ آخـر، لمـاذا أقـول هـذا؟... لأننـي نسـيتها! كـما أنـسى كل شيء آخـر، ضـاع منـي الخاتـمُ أثنـاء الوضـوء، فهـل أراد لي إلهـي أن أضيعه إذن؟ هـل هـذا هـو عقـابي وجـزائي حقًّـا؟

ضاعـت كلمتـي المنجيـةُ.. ونسـيتها، فأنـا لم أسـجلها عـلى الخاتـم سـوى لخـوفي مـن نسـيانها، والآن هـل كُتـب عـليَّ أن أعيـشَ بـلا ذاتٍ وروحٍ؟ مـاذا أردتُ أن أنـسى أصـلًا؟! أهنـاك مـكانٌ آخـر أعـثرُ فيـه عـلى مـا فقـدت؟ ولـو كان موجـودًا... هـل سـأتذكره؟ أخـشى أن أنـسى مـكان هـذه المدونـة أصـلًا... نعـم المدونـة، كتبـتُ فيهـا الكثـيرَ عـن نفـسِي سـأعودُ لأقـرأ مـا كتبتـه علّـه يُسـاعدني.

***

لم أفهـم شـيئًا.. لأني لا أذكـرُ شـيئًا، هـي خواطـرُ شـخصٍ يائـسٍ وحسـب، لكـن كل ذكريـاتي وخـبراتي مُبـادةٌ، هـل أدركـتُ الآن بعدمـا انتهـت الامتحانـات مـا فعلتـه في حـق نفـسي، صرتُ أنـسى كل شيء إلا الهندسـة، أصابتنـي التجربـة بـأذى لم أتوقعـه، اليـوم نسـيتُ اسـم أمـي! فقـدتُ القـدرةَ عـلى معاملـة غـيري تمامًـا، أنـا محـضُ آلـةٍ للمذاكـرة فقـط،

أيـن الحـل الآن.. ومَـن لي بالخاتـم الـذي ضـاع وضـاع معـه وجـودي وروحـي؟

مـاذا سـأنسى مجـددًا، وإلى أيِّ حالـةٍ سـيؤول موقفـي؟ أشـعرُ كمـن يسـقطُ في هاويـةٍ بـلا قـرارٍ، لا أطـول سـماءً ولا أبلـغ أرضًـا، رأسي يُؤلمنـي عـلى الـدوام، لكنـي لـن أبـوحَ بـشيءٍ مـن قصتـي لأي مخلـوقٍ، أنـا مَـن آذيـتُ نفـسي، سـأبقى هكـذا حتـى يتغمـدني إلهـي برحمـةٍ منـه وفضـلٍ، الإلـه.. مـاذا كان اسـمه؟.. مـاذا كان اسـمه؟!

***

الخاتمة بقلم

«عبد الملك»

عُـدتُ لمحمـود كافـكا، للشـخصِ الـذي حـاول نسـيانَ أحزانـه ففعـل هـذا حرفيًـا بسـحرٍ مـا، وقـد نـسي بالفعـل كل شيء عـدا دراسـته، حتـى أصابتـه تجربتُـه بغيبوبـةٍ، وفي غيبوبتـه عـادت أحزانُـه لتطـاردَه في شـكلٍ جديـدٍ، لتنتـجَ قصةً أخـرى بطلهـا إيسـاف برصيصـة! وأنـا عبـد الملـك الـذي أعـاده مـن غيبوبتـه حـين فهمـتُ السـحرَ بشـكلٍ مـا، وجدُتـه يُحـدِّق في الأفـق مفكـرًا، انتهـى مـن قـراءة مذكراتـه إذن، ولعلـه الآن يُقـرر... هـل يفعلهـا؟ توجَّهـت إليـه مُبتسـمًا لكنـي وجدتـه واجـمًا حزينًـا:

- "ما الأمر؟"

ردَّ في تؤدةٍ:

- "هكذا أنقذتني إذن... بمعرفتك للكلمةِ الصحيحةِ"

باسمًا أجبتُه:

- "بعـد كل تحليلـي.. كنـتُ مُوقنًـا مـن شـيءٍ واحـدٍ ولا أدري كيـف فعلتـه... أنـك نسـيت، بـل أنسـيت نفسـك بشـكلٍ مـا، حبيبتـك وصديقـك وأمـورًا أخـرى، لمـاذا يحتفـظُ مـن أنسـى نفسـه كل شـيء بخاتـمٍ عليـه كلمـةٌ معينـةٌ؟ لأنهـا مهمـةٌ جـدًّا بالنسـبةِ إليـه، توافـق هـذا مـع تخمينـي أنـك وقعـتَ فـي الغيبوبـة لخلـلٍ أحدثتـه

برأسِك، ولا بد أن لهذا عَلاقةً بالكلمةِ المهمة على الخاتم، كانت نظريةً مجنونةً ونسبةُ نجاحِها نصف بالمائة، لكنها كانت كل ما أملك، وكانت متحققةً بشيءٍ من الخيال، أنت حقَّقت الخيال بالسحرِ كما تحكي، ومن النت عرفت أن الأمرَ ممكنٌ، قرأتُ الطريقة مباشرةً من موقعٍ على الشبكة العميقة، فلن يكونَ الوصولُ لسحرٍ كهذا بالسهل عبر الشبكة العادية، أنت فكَّرت هكذا طبعًا، وفي نفس الوقت تتبعت كل شيءٍ حتى عرفتَ الكلمة، الكلمة التي تعني مباشرةً أنك نسيتَ أحزانك بها"

- "ولهذا لم أعد بكاملِ ذاكرتي، تحقَّق نصفُ الشرطِ فقط بقولِ الكلمة ثلاث مراتٍ، أفقتُ من الغيبوبة فقط"

أُعَلِّقُ فِي مَرَحٍ:

- "تخيَّلْ لو أنني اكتفيتُ بقولِ الكلمة مرةً واحدةً أو اثنتيْن!"

لكن محمود لم يبتسم.. يصمتُ لوهلةٍ ثم يُوجه السؤالَ لنفسهِ قبلي:

- "أنا... أنا فعلتُ هذا كله من أجل.. من أجل ماذا؟"

أصمتُ ناظرًا إليه بتأييدٍ، أقول بصراحةٍ:

- "مـن أجلـك أنـت.. فعلتَهـا فـي لحظـة ضعـفٍ، فعلتَهـا لتنسـى أحزانـك، إذ يبـدو أن سـبيلًا غيـر هـذا لـم يكـن متاحًـا لـك، أنـت المتناسـي الأعظـم! مَـن فينـا لـم يُحـبَّ يومًـا أن ينسـى مـا يريـده مثلـك؟! كلُّ الشـبابِ العـزَّاب يتمنـون لوهلـةٍ أنْ ينسـوا حاجتهـم للجنـسِ الآخـر حتـى يُدبـروا المـالَ الكافـي للـزواج علـى الأقـل، مـاذا عمـن ماتـت أمـه مثـلًا؟ سـتجده مُسـتعدًّا لفعـلِ أي شـيء حتـى ينسـى مُصيبتَـه العظمـى هـذه، كمـا أن أفضـل حـلٍّ لمـن خانـك مـن النـاس هـو أن تتجاهلـه كأنـك لـم تعرفـه يومًـا، كنـتَ علـى وشـك أن تنسـى أنـك عربـي كذلـك! وأن ثمـة بقعـةً معذبـةً فـي العالـم تخصـك وتُدعـى فلسـطين ولا تسـتطيعُ فعـل شـيء مـن أجلهـا أو أخواتهـا، صدِّقنـي يـا كافـكا، مـا نحـب نسـيانه كبشـرٍ لا حـدَّ لـه، أمـا بالنسـبة لنـا كعـربٍ.. يتضاعـفُ مـا نريـد نسـيانه! وكمصرييـن.. ضاعـف هـذا لأضعـافٍ مضاعفـةٍ!، بـل إننـا نفعـل هـذا بشـتى الوسـائل فـي كلِّ يـومٍ، تخطَّينـا كل الأمـم فـي التجاهـل، نُحـب التناسـي لا شـعوريًّا بمباريـاتِ الـدوري المصـري أو الأوروبـي رغـم البـوْن الشـديد بينهمـا! نسـعى لـه بفيلـمٍ لراقصـةٍ

مصريـةٍ أو أرمينيـة! لكـن ليـت النسـيان حـلًّا، أنـت جرَّبتـه حرفيًّـا.. فهـل وجدتَـه ناجعًـا؟... أعثـرتَ فيـه علـى ذاتِـك حقًّـا؟"

يصمـتُ.. ناظـرًا لأسـفل، تسـقط دمعـةٌ مـن رموشـهِ لـلأرضِ، أقـولُ مُشـجِّعًا رابتًـا عـلى كتفـه:

- "لكنـك الآن تقـدر علـى العـودة، علـى إعـادة كل الأمـور إلـى نصابهـا"

لا يردُّ مُجددًا، كطفلٍ غريرٍ يُخبرونه أن مصيره بيده:

- "لكني الآن أعرفُ كل ما نسيته"

- "تعني معنى الموت.. والحب.. والجنس؟"

- "أعرفهـم.. أعرفهـم جميعًـا، عشـتُ حيـاةً كاملـةً هنـاك فـي العاهـرة وعرفتهـم و.."

بـدا حائـرًا لم يـزل، فقـررتُ مسـاعدتَه فـورًا، أخرجـتُ هاتفـي، اخـترتُ الكاميـرا الأماميـة، ناولتـه إيـاه، راح ينظـرُ لنفسـهِ كأنـه يلومهـا:

- "الآن... الأمـرُ بيـدك، قُـلْ مانيسًـا ثـلاث مـراتٍ.. تعـدْ محمـود كافـكا القديـم"

واستمرَّ محمود ينظرُ، ولا يُحرِّك ساكنًا، وأنا أنتظره، وأتساءل كل ثانية...

هل سيُفضل العودة؟ ويتذكر كل ما آلمه وأحزنَه وأعجزَه؟ وهنا وجدنا من يدخلُ المدرج الصغير، فتاةً طويلةً بضفيرةٍ بدا أنها تظن أن ثمة محاضرةً تُقام هنا، دارت بنظرِها في المكان حتى رأتنا، من غيرها؟.. ياسمين طبعًا! بادلتنا النظرَ للحظةٍ بلا أي تعبيرٍ.. وحدَّقت بمحمود للحظةٍ، لحظةٍ بدتْ كدهرٍ، وأخيرًا هزَّت رأسَها تحيةً لنا مع شبح ابتسامةٍ، واستدارت خارجةً من باب المدرج.

نظرت لمحمود الذي خرج من شرودِه وابتسم في حنينٍ! حكيتُ له عنها كثيرًا لكنه لم يرها قط.. في الواقع بعد عودته، قال باسمًا:

- "تلك هي.. نائلة!"

- "أعرف!"

لكنه عاد لمرآته في الهاتف، وعاد لوجومهِ وحيرتهِ، وعُدت أنا لأتساءل:

هل يقولها كافكا الآن؟

هل يفعلها ويعودُ؟

هل؟!!!

الخاتمة بقلم

" مَحْمُود كِافِلا"

حكـوا عنـه الكثـيرَ، وقـرأتُ عنـه أكـثر، لا شيء نافسَـه في ذكـره وسـطوته، تفنـن الجميعُ في وصفـهِ، غصَّـت بـه الأشـعارُ منـذ عرفنـا الـكلام، تلقفتـه حناجـرُ الطـرب والغنـاء، الـكل شـدا بـه، الـكلُّ ولـهَ بـه، الـكلُّ أراده بشـدةٍ، فـلا شيء يُضـارع لذتـه ووقْعـه في النفـوسِ، لـذا بـذل الجميـعُ في سـبيله كلَّ عزيـزٍ وغـالٍ، وجـرت مـن أجلـه البطـولاتُ والملاحـمُ، وظلـت حكاياتـه ومآثـرُ أبطالـهِ حـاضرةً خالـدةً مـا دام الزمـانُ، فهـل عرفتـه أنـا الآخـر؟.. عرفتـه، معـك أنـتِ!

عرفـتُ الحـب يـوم أحببتـك، يـوم عشـقتُ سـكناتك وحركاتـك، تفاصيـل وجهـك.. رمشـات عينيـك.. لفظـات لسـانك، هـل أبالـغُ؟.. هـل أغـالي في مشـاعري وأقـوالي؟ لا أظـن.. ولا أظنـك تعرفـين مـا بداخـلي، لا يسـعني إلا أن أخـبرك بصراحـةٍ، مـا خبرتـه معـك مـن إحساسـاتٍ لا يُضاهيـه شيء آخـر، أجمـل شـعور.. أزهـى عصـوري عرفتهـا معـك، ذاكـرتُ معـك كـما لم أذاكـر.. بلغـتُ قمـة نجاحـي ومجـدي وسـعادتي، أكُل هـذا لم يكـن سـوى روعـة الحـب الأول السـاذجة المؤقتـة؟ أكانـت مشـاعري محـضَ أفاعيـل الكيميـاء في الـرأسِ والجسـد؟ دوبامـين وسـيروتونين ومـا شـابه؟

قالـوا لي أنـت غريـرٌ غـضٌّ، أنـت لا تعـرفُ شـيئًا عـن الحـبِّ الـذي تتشـدَّق بـه، أيـن أنـت مـن حـبِّ العبـد لربـه؟

أو لدينهِ ورسوله؟ ماذا تعرفُ عن حبِّ الابن لوالديْه؟ حُبِّ الوطن.. والأرض، حُبِّ العلم والمعرفة، أكدوها لي صريحةً، لست إلا مغبونًا تعيشُ زيف التجربة، ستفيقُ منها بعد حينٍ، وتعودُ لرشدك وتُدرك مأساتك إذ وضعت حبك في المكان الخطأ، وماذا عنكِ أنتِ؟.. أتوافقينهم على قولهم؟ أعرفُ أنك لا تُبادليننني المشاعر.. ولم تفهمي كلماتي القليلة معك ولكن.. ولكن ماذا عساي أفعلُ.. يا مانيسًا؟

ربما هم على شيء من الحق، فأنا لم أعرفك عن قربٍ، ربما لم أعرفك على الإطلاق! إذن فهو الإعجابُ وليس الحب، الإعجابُ بوجهك الأسطوري الذي فعل بي الأفاعيل، أو هي نظرةُ التقديس التي يُوجهها منطوٍ مثلي لأي أنثى جميلةٍ وكأنها كائنٌ نوراني جميلٌ ليس أكثر.. كما يقولُ المحللون النفسيون! فالحب أكبر من هذا.. أقدس وأعظم بكثيرٍ ولكن.. ولكنني أحببتك! أحببتُ حبك.. وأحببت عالمي بك، حين كلمتك.. تمنيت أن أخبرك عن الشيء الوحيدِ الذي يُقصيني عنك، شَعرك المكشوف.. وملابسك التي لم تتعمدي أن تكونَ مثيرةً، لكنها حتى إن لم تكن كذلك لي أنا، كانت مخالفةً للدين وللمجتمع، رغم أنهما- الدين والمجتمع- مختلفان عندنا كما يكون الاختلافُ والتباينُ!

كـدت أخـبرك بـكلِّ شيء، لكننـي جبنـتُ عـن هـذا، خشـيتُ ردة فعلـك، خشـيتُ أن تُواجهينـي بالحقيقـة نفسـها مـن ناحيتـي، أنـا نفـسي لا أطبِّـق الديـنَ وفروضَـه كـما ينبغـي! ولا مجتمعـي بأكملـه الـذي نشـأت عـلى عُرفـه وشرعـه! مجتمعـي المتناقـضُ الـذي يـكاد يُضاهـي الفرِّيسـيِّين في حـبِّ المظهـر فقـط وإغفـال الجوهـر! مجتمعـي الـذي فيـه ألـفُ رأي وألـفُ مُحلـل وألـفُ مُحـرَّم، كأنـه ألـفُ ديـن.. وليـس دينًـا واحـدًا، المُحلـل زنديـقٌ فاسـقٌ، والمُحـرَّم رجعـي متخلـفٌ! اهتمـوا بسفاسـفِ الأمـور وخاضـوا في الفـروع ناسـين الجـذعَ نفسَـه، ناسـين العمـلَ والنجـاحَ والتميـز الـذي رأيتـك أنـتِ- بملابسِـك هـذه- تسـعين إليـه سـعيًا! كيـف أجـدُ نفـسي كمؤمـنٍ بـين كل هـذا؟! أنـا الـذي احتـار في اختيـار لـوني المُفضـل منـذ الصغـر!

أعـودُ لحديثـي معـك عـن الحـبِّ، الحـبُّ جميـلٌ يـا مانيسَّـا.. أيًّـا كان شـكله! حتـى لـو كان مثـل حبـي! أتعرفـين قصـة الجيـش الـذي توجَّـه لغـزو مدينـةٍ، فوجـد عـلى أطرافهـا أحـد شـبابها يبـكي بحُرقـةٍ، فسـأله قائـدُ الجيـش عـما يُبكيـه، ليجيـبَ الشـاب أنـه أخفـق في إصابـة الهـدف عنـد الرمـي بالسـهام، هنـا أمـر القائـدُ جيشَـه بالرجـوع فـلا يمكنـه غـزو مدينـة أهلهـا كهـذا الشـاب الطمـوح، وبعـد عـشر سـنين تكرَّر

الموقفُ، سار القائدُ بجيشهِ تجاه المدينة ووجد شابًّا آخر يبكي، وحين سأل عن السببِ أجابه الفتى أنه يبكي لفراق حبيبته، ليطمئن قلب القائد ويأمر جيشه بالتقدم فالغزو صار سهلًا مضمونًا، هنا تنتهي القصةُ وأسائل نفسي.. هل الفتى الأول لم تكن له حبيبةٌ؟ أم لعله اطمأن إلى حبيبته فاهتم برمي الأهداف!

لستُ أول من أحب بهذا الشكل الأحادي! فقد سبقني دانتي أليجيري في إيطاليا، وسيرانو دي برجيراك في فرنسا، وحسن المرواني في العراق، المرواني الذي يقول عن حبه الشبيه بحبي:

إني بغيرِ الحُبِّ أخشابُ يَابسِةٍ ... إني بغيرِ الهوى أشباهُ أمواتِ!

وهناك غيرنا الكثير ولكن رغم كل هذا، كان حلمًا لا يُوصف بكلماتٍ، عشتُ فيه السعادة والانطلاق والتقدير المرتفع، وأفقتُ منه حين رأيتُ استحالة الوصول لقلبك، وانتكستُ بشدةٍ بعدها يا مانيسَّا، حين هاجمني الأعادي قاطبةً، هاجموني بلا رحمةٍ، إذ عدت وتذكرتهم! هل كان يكفي فقط أن أتذكرهم ليعودوا؟!.. أي نوعٍ من الأعداء هذا؟! أنساهم فيتركوني.. وأتذكرهم فيعودوا من جديدٍ؟ والآن لا أدري ماذا سيفعلون بي، فقد كنتِ يا مانيسَّا.. ملاذي ونجاتي ولذا أسميتك مانيسَّا!

لأنك فعلتِ بي نفس ما فعلته مانيسَّا ابنة النبي يوسف عليه السلام، أنسته أحزانه كما أنسيتني أنتِ أحزاني، بل إن حروفَ اسمك هي ذاتها حروفُ اسم بنت النبي! وإن كنت لست ببنت النبي في مظهرك وأخلاقك، فأنا أيضًا لستُ كذلك، لستُ ابن النبي التقي الورع، لكنني أحببتكِ وسأحب حبك دومًا.

بحبكِ سموتُ على غرائزي واقتربتُ نوعًا من أخلاق الأنبياء! حين قدَّست حبك فصار شامخًا في سمائي وهجرت كل ما أدناه! ولم أنظر لوجهِ أنثى أخرى سواك فضلًا عن التضاريس الأخرى! حتى مسابقات ملكة جمال العالم كنت أعافُها طوعًا وأنا العاشق لكل جمال... فقد اكتفيتُ منك! هجرتُ كراخانات الفكر هجرًا، وما أكثرها في ذهني وذاكرتي يا مانيسَّا! حتى حين كانت إحداهن تنظرُ لي، كنتُ أزهد في النظر لها قانعًا بحبي الصامت لك! كل هذا دون أن أقتربَ منك بما يكفي! فماذا لو اقتربت؟!

ـ "ولكن لماذا؟"

تسألينني لماذا يا مانيسَّا؟ لأنك.. لأنك أنتِ! لأنك أجمل شيء حصل لي، لأنك الياسمين الذي عطَّر دنيتي، لأنك نعمةُ الحب والنسيان التي اكتنفتني، لأنك مانيسَّا،

لأنـك بالنسـبةِ إليَّ.. بنـت النبـي يوسـف، فـماذا سـيُصيبني الآن دونـك.. ودون حبـك المُنـسي وسـلواكِ؟!

المَقالُ الأولُ بمدوَّنةِ

カフカトン

(ورقة في مذكرات أحد طلاب كلية الهندسة)

حُبٌّ/ عشق: أسمى علاقة بين اثنين، خاصة بين رجل وامرأة.

موت/ وفاة/ منية: رحيل من الدنيا إلى دنيا أخرى.

صداقة/ صحبة: هي علاقة بين اثنين أو أكثر، تعني معرفة الاسم وبعض الصفات والتاريخ المشترك بين الأصدقاء والأصحاب.

فلسطين : .....

العرب : .....

اليوم الأربعاء، والمكان مسجد الكلية، بعد محاضرتي الهندسة المدنية صليت الظهر وأليت قراءة ما تيسّر من القرآن، اخترت مصحفًا من أحد الرفوف وانهمكت في قراءة معشوقتي سورة يوسف، وبينما أقلب الصفحة، وجدت هذه الورقة مدسوسة بحرص بين الصفحات، بفضول بشري عتيد فردتها وقرأت ما بها.

في البداية صدمت بالتعريف الآلي الذي سطرته بمجرد رؤيته وكدت أمزّق الورقة فور انتهائي من قراءتها، لكنّي رضخت لإغراء الاحتفاظ بها، ربّما لما فيها من أفكار تأملية، فما الذي يدفع أحدهم للكتابة كلامًا كهذا؟ وما الرابط بين ما كُتب من تعريفات؟.. بين العشق وفلسطين! حقيقة دفعني للتفكير في كنه ومعنى ما كُتب، وسألت نفسي طويلًا.. ماذا كان صاحب الورقة سيكتب في الساحات الخالية؟ سأبقيها معي... فربما أكملها بنفسي يومًا ما..

كلية الهندسة، المسجد
بتاريخ : ١٤ / ٥ / ٢٠١٦
توقيع :
م / أحمد صبري

"تمَّت بحمدِ اللهِ"

القاهرة ٢٠١٦

الشكر الجزيل

لأستاذي الجميل

عمرو العادلي

لتشـجيعه و دعمـه المتواصـل و نصائحـه القيمـة فلـولاه لمـا خرجـت القصـة للنـور

و شكر آخر لا أنساه لكل من :

أمي التي علمتني القراءة

أبي الذي أورثني حب القراءة

أخي الذي أرجو ان يحب القراءة !

و كل صديـق و صديقـة قـرأوا العمـل و أبـدوا ملاحظاتهـم أو سـاعدوني في اختيـار مـا احـترت بصـدده ، لـن أسـتطيع ذكركـم كلكـم في صفحـة أو اثنتـين ، لكنكـم تعرفـون أنفسـكم يـا مـن أقصدكم!

للتواصل مع الكاتب

Mhmoud_pc@yahoo.com

شريف أسعد
#اعترافات_جاسة

رواية
حواديت السعادة
شريف أسعد

Subject
الورقة
Book!

بالطو وفانلة وتاب
أحدث عاطف

الطريق إلى
السيدة العجوز
محمد آدم

الرَّاحِلُونَ
أحمد إبراهيم موسى

محمود جمال
١٩٨٠ رانت طالع

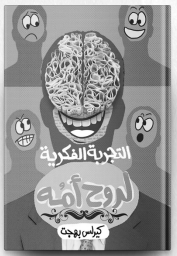
التجربة الفكرية
لروح أمك
كيرلس بهجت

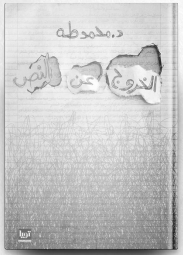
د.محمود طه
الروح من الرئة

محمد عبد الصمد

منتصر أمين
الطوّاف
رواية

ياسمين حسن
ماريا

عرايا الروح
رواية
حنا المطري

أحمد عويضة
وتبقى لتراه
مجموعة قصصية

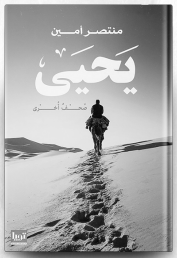
منتصر أمين
يحيى
محمد أمزي

ملكوت
شريف عبد العاني

معرض الكتاب
إعلان بدون دوافع أدبية
رواية
عبد الرحمن تاويش

إبقَ حيًا
رواية
إبراهيم أحمد عيسى

دار تويا للنشر والتوزيع